النيابة

لسان حال الاحرار الدستوريين

ملحق ممتاز للعدد ٣٢٣٢

فهرست

صفحة

١ — حياة محمد : للدكتور هيكل بك
١١ — الاجرام السماوية — هل بالشمس أحياء ؟
١٢ — موقف مصر من الشرق والشرقيين : للاستاذ مصطفى فهمى
١٥ — كفارة الحب : للدكتور هيكل بك
٢٣ — المستشرقون والاسلام : للاستاذ يوليوس جماوس
٢٤ — الفرعونية والعربية : حاضر لاماضى له لامستقبل له : للدكتور هيكل بك
٢٨ — شيخ البلد : للاستاذ عبد الوارث كير
٣١ — مصر فى مفترق الطرق : للاستاذ امين حسونه
٣٣ — الشرق والغرب فى العصور الوسطى : للدكتور هيكل بك
٣٩ — الالعاب الرياضية — شباب المشيب : للاستاذ محمود محمد بسيونى

لا تحكموا على أى انسان عند المداواة بالكهرباء والأشعة
الا بعد زيارة المستشفى الوحيد للدكتور

حامد شاكر بك

جراح وعالج للامراض الزهرية والتناسلية

البوم قد أمكن الأستاذ الدكتور حامد الهارس فى المعالجة بالطرق الكهربائية والأشعة من نحو الثلاثين سنة فى القطر مداواة كافة الأمراض باختلاف أنواعها فى مستشفاه

أولا — فى قسم العلاج بالكهرباء يداوى الأمراض المستعصية . الباطنية . الجراحية . النسائية ، المجارى البولية ، العصبية ، أمراض الأطفال ، الأمراض السرية ، ضعف الأعصاب وعلى الخصوص عموم انواع الشلل والروماتزم بغير ألم

وقد حدد لمتوسطى الحال أجرة متهاودة جداً لأسباب الضائقة المالية الحالية .

فحمل الكشف ٢٠ قرشاً بما فى ذلك ثمن الدواء والكشف عليه بأشعة رنتجن وللفقراء مجاناً

أما قيمة الاتعاب فى المعالجة المستمرة فى المستشفى أو الخارج فيتفق عليها بأجرة زهيدة

ثانياً — فى قسم الأشعة

الأشعة ورنتجنه التى تظهر الباطن

تفحص بالاشعة كل الأمراض قبل علاجها كأمراض : المعدة ، المصارين ، الكبد ، الكلية ، القلب ، الرأتين ، المثانة ، العظام ، المخ ، وعموم الأعصاب الخ

أجرة الفحص بأشعة رنتجن مع إعطاء الصورة الفوتوغرافية بالمرض هى من ٥٠ إلى ١٠٠ قرش

ثالثاً — فى قسم جراحة وطب الاسنان

يعالج كل ما يلزم علاجه فى الفم والاسنان وخصوصاً تقيحها بيد أستاذ فى جراحتها

وتصنع الاسنان بيد اختصاصى من أطقم كاوتشوك أو ذهب الخ

		ص		ص
الأجرة هى	خلع الضرس بدون ألم	٥	عمل طربوش ذهب	٥٠
	صناعة سنة	١٥	عمل سنة ذهب صب	٦٠
	طقم كامل	٢٥٠	حشو ضرس	١٠

عموم أعمال المستشفى بمعرفة دكاترة اختصاصيين فيها مع الضمان والمهاودة

وعند الطلب يمكن نقل الاشعة والآلات الى المنازل

وقد جعلت أبواب المستشفى مفتوحة لكل متفرج أو طبيب محترم ؟

فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون . »

وقال محمد للجد بن قيس أحد بنى سلمة : ياجد هل لك العام فى جلاد بنى الاصفر . فقال : يارسول الله لو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه مامن رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الاصفر ان لا اصبر . وبنو الاصفر هم الروم . فأعرض عنه رسول الله وفيه نزلت هذه الآية : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . » وانتهز الذين تنطوى قلوبهم على بغضاء محمد هذه الفرصة ليزيدوا المنافقين نفاقا وليحرضوا الناس على التخلف عن القتال . هؤلاء لم ير محمد أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحل أمرهم ورأى ان يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . بلغه أن ناسا منهم يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس ويلقون فى نفوسهم التخاذل والتخلف عن القتال . فبعث اليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه فحرق عليهم بيت سويلم ففر أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم الباقون النار فأفلتوا ولكنهم لم يعودوا لمثلها ، ثم كانوا مثلا لغيرهم فلم يجرأ أحد بعدهم على مثل فعلهم .

وقد كان لهذه الشدة فى أخذ المتفقين ومن معهم أثرها . فقد أقبل الاغنياء وذوو اليسار فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش : أنفق عثمان بن عفان وحده الف دينار . وأنفق كثيرون غيره كل فى حدود طاقته . وتقدم كل قادر على نفقة نفسه بعدته ونفقته . وأقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحملهم النبى وإياه فحمل منهم من استطاع ، واعتذر للباقين وقال لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ان لا يجدوا ما ينفقون . ولبكائهم هذا اطلق عليه اسم البكائين . واجتمع لمحمد فى هذا الجيش الذى سمى جيش العسرة لشدة ما لاقى منذ يوم تكوينه ثلاثون الفا من المسلمين

اجتمع الجيش وقام ابو بكر فيه يؤم الناس للصلاة فى انتظار عود محمد من تدبير شؤون المدينة أثناء غيبته . ولقد استخلف عليها محمد بن مسلمة وخلف على بن ابى طالب على أهله وأمره بالاقامة فيهم واصدر ما رأى ان يصدر من الاوامر ثم عاد الى الجيش يتولى قيادته . وكان عبد الله بن ابى قد خرج فى جيش من قومه يسير به الى جانب جيش محمد . لكن النبى رأى ان يظل عبد الله وجيشه بالمدينة لأنه كان مايزال ضعيف الثقة به وبصحة ايمانه . وأمر فتحرك الجيش وثار النقع وصهلت الخيل وارتقت نساء المدينة سقفها يشهدن هذا الجحفل الجرار يتوجه مخترقا الصحراء صوب الشام مستهينا فى سبيل الله بالحر والظمأ والمسغبة تاركا وراءه القواعد والخوالف ممن آثروا الظل والنعمة واللذة على إيمانهم وعلى رضى الله عنهم . ولقد حرك منظر الجيش يتقدمه عشرة آلاف فارس ومنظر النسوة مأخوذات بجلاله وقوته بعض نفوس لم تحركها دعوة الرسول فتقاعست ولم تتبعه . رجع ابو خيثمة بعد ان رأى هذا المنظر فوجد امرأتين له فدرشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاما ، فلما رأى الرجل ماصنعتا قال : رسول الله فى الضح والريح والحر وابو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم . هيئا لى زادا حتى ألحق به . فهيآ له زاده ولحق بالجيش . ولعل جماعة من الخوالف قد فعلوا فعل ابى خيثمة بعد ان رأوا ما فى التقاعس والخوف من شنار ومذلة .

وسار الجيش حتى بلغ الحجر وبها اطلال لمنازل ثمود منقورة فى الصخر . هنالك امر رسول الله بالنزول فاستقى الناس من بئرها . فلما راحوا قال لهم : لاتشربوا من مائها هنيئا ولا تتوضأوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للابل ولا تأكلوا منه شيئا ولا يخرجن منكم احد إلا ومعه صاحب له . ذلك ان المكان لم يكن أحد يمر به وكانت تعصف احيانا عواصف الرمل تطمر الناس والابل . ولقد خرج رجلان على خلاف امر الرسول احتملت احدهما الريح وطمرت الآخر الرمال . فلما اصبح الناس الفواهذه الرمال قد طمت البئر فلم يبق به ماء ففزعوا خيفة الظمأ وقدروا لما بقى من طول الطريق . وانهم لكذلك إذ مرت بهم سحابة امطرتهم فارتووا واصابوا من الماء ماشاءوا وزايلهم الفزع وطار اكثرهم سرورا وأقبل بعضهم الى النبى يقولون انها معجزة فلم يرض قولهم وكان جوابه لهم : انما هى سحابة مارة .

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصدا تبوك . وكانت الروم قد بلغها امر هذا الجيش وقوته فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجهت الى حدودها ليتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها .

السياسة

ادارة الجريدة بشارع المناخ رقم ٣٠
تليفون رقم ٥٩٨٧
صاحب السياسة
محمود عبد الرازق باشا
رئيس التحرير المسؤول
حفنى بك محمود
تكون المراسلات باسم مدير السياسة
الدكتور محمد حسين هيكل بك

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة
الاشتراكات تدفع مقدما
داخل القطر خارج القطر
عن سنة ١٥٠ قرش ٢٢٠ قرش
« نصف سنة ٨٥ ١١٠ «

القاهرة فى يوم الجمعة ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ — ٩ جمادى الاخرة سنة ١٣٥٢ (ملحق للعدد ٣٢٣٢)

حيـــــاة محمد

للدكتور هيكل بك

(وقفنا من هذا البحث فى ملحق السياسة الأخيرين عند فتح مكة وغزاة حنين وحصار المسلمين الطائف وعودهم الى الجعرانة لاقتسام الفىء ثم انقلاب النبى الى مكة وعمرته ومغادرته أم القرى الى المدينة . وهانحن نتابع الآن بحثنا)

عاد محمد الى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره فى حنين وحصاره الطائف وقد ثبت فى نفوس العرب جميعا ان لم يبق به قبل لأحد فى شبه الجزيرة كلها ، وأن لم يبق للسان أن ينطلق بإذائه أو الطعن عليه . وعاد الأنصار والمهاجرون معه وكلهم مغتبط بما فتح الله على نبيه بلد المسجد الحرام ، وبما هدى أهل مكة الى الاسلام ، وبما دان له العرب على اختلاف قبائلهم بالطاعة والاذعان . عادوا جميعا الى المدينة ليطمئنوا الى شىء من سكينة الحياة بعد أن ترك محمد وراءه عتاب بن اسيد على ام القرى ومعاذ ابن جبل ليفقه الناس فى دينهم وليعلمهم القرآن . وقد ترك هذا النفر الذى لم يعرف له فى تاريخ العرب وفى رواياتهم نظير أثرا فى نفوس جميع العرب بالغا . ترك أثرا فى نفوس العظماء والسادة الذين كانوا لا يتوهمون مجىء يوم يدينون فيه لمحمد بطاعة أو يرتضون دينه لأنفسهم دينا ، وفى نفوس الشعراء الذين ينطقون بلسان هؤلاء السادة مقابل مايلقون من عطفهم وتأييدهم ، أو مقابل مايلقون من تأييد القبائل ومؤازرتها ، وفى نفوس هاته القبائل البادية التى لم تكن تعدل بحريتها شيئا ولا كان يدور بخاطرها أن تنضم تحت لواء غير لوائها الخاص أو تموت دون ذلك فى حرب وطعان تفنى خلالها فناء تاما . وماذا يجدى على الشعراء شعرهم وعلى السادة سيادتهم وعلى القبائل احتفاظها بذاتيتها أمام هذه القوة الخارقة للطبيعة لا تقف قوة أمامها ولا يجرؤ سلطان على اعتراضها ! ولقد بلغ الأثر من نفوس العرب أن كتب بجير ابن زهير الى أخيه كعب بعد منصرف النبى عن الطائف يخبره ان محمدا قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه وان من بقى من هؤلاء الشعراء قد هربوا فى كل وجه وينصح اليه أن يطير الى النبى بالمدينة فانه لا يقتل احدا جاءه تائبا ، أو ينجو بنفسه الى حيث شاء من اغوار الارض . وانما قص بجير حقا ، فلم يقتل بمكة بأمر محمد خلا أربعة منهم شاعر آذى النبى هجاؤه ، ومنهم اثنان آذيا زينب ابنته حين أرادت باذن زوجها ان تهاجر من مكة لتلحق أباها . وأيقن كعب بصدق اخيه وبأنه إلا جاء محمدا ظل حياته طريدا مشردا . لذلك اسرع الى المدينة ونزل عند

صديق له قديم، فلما أصبح غدا الى المسجد واستأمن النبي وأنشده قصيدته:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

فعفا النبي عنه وحسن من بعد ذلك اسلامه.

وكان من هذا الأثر كذلك ان بدأت القبائل تقبل على النبي تقدم الطاعة بين يديه. قدم وفد من طيء وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل فلما انتهوا اليه احسن استقبالهم وتحدث اليه زيد فقال النبي له: ماذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون مايقال فيه إلا زيد الخيل فانه لم يبلغ كل مافيه. ودعاه زيد الخير بديلا من زيد الخيل. وأسلمت طيء وزيد على رأسها

وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانيا وكان من اشد العرب كراهية لمحمد. فلما رأى أمره وأمر المسلمين استفحل في شبه الجزيرة تحمل في ابله بأهله وولده ولحق بأهل دينه من النصارى بالشام. وانما فر عدي حين أوفد النبي علي بن ابي طالب ليهدم صنم طيء. وهدم على الصنم واحتمل الغنائم والاسرى ومن بينهم ابنة حاتم اخت عدي التي حبست في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها. ومر بها النبي فقامت اليه وقالت: يارسول الله هلك الوالد وغاب الرافد فامنن علي من الله عليك، وأعرض عنها النبي حين علم ان رافدها عدي بن حاتم الفار من الله ورسوله. لكنها راجعته وذكر هو ما كان لأبيها في الجاهلية من كرم أعلى به ذكر العرب فأمر بتسريحها وكساها كسوة حسنة واعطاها نفقتها وحملها مع اول ركب قاصد الى الشام. فلما القيت هناك أخاها وذكرت له ما اكرمها محمد عاد اليه فألقى بنفسه الى صفوف المسلمين.

وكذلك جعل السادة وجعلت القبائل تفد الى محمد بعد فتح مكة وبعد انتصار حنين وحصاره الطائف، تدين له بالرسالة والاسلام، وهو في مقامه ذاك بالمدينة مطمئن الى نصر الله سلمان الى شيء من سكينة الحياة.

لكن سكينة حياته لم تكن يومئذ صفوا. فقد كانت زينب ابنته إذ ذاك مريضة مرضا خشي منه عليها. وهي منذ آذاها الحويرث وهبار حين خروجها من مكة ذي أفزعها فأجهضها قد ظلت مهدمة العافية. وانتهى المرض بوفاتها. وبموتها لم يبق لمحمد من عقبه الا فاطمة، بعد أن ماتت أم كلثوم كما ماتت رقية قبل زينب. وحزن محمد لفقدها وذكر لها رقة شمائلها وجميل وفائها لزوجها أبي العاصي بن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسره ببدر، وتفتديه برغم اسلامها وشركه ورغم محاربته أباها حربا لو انتصرت قريش فيها لما أبقت لمحمد على حياة. ذكر محمد رقة شمائلها وجميل وفائها وذكر ما لاقت من ألم المرض طوال أيامها منذ عادت من مكة الى حين وفاتها. وكان محمد يشارك كل ذي ألم ألمه، وكل ذي مصاب مصابه، وكان يذهب الى أطراف المدينة والى ضواحيها يعود المريض ويواسي البائس ويأسو جراح الكليم. فاذا أصابه المقدار في ابنته بعد ما أصابه من قبل في أختيها كما أصابه ما قبل رسالته في أخويها فلا جرم أن يحزن ويشتد به جوى الحزن، وان وجد من بر الله ورفقه به ما يعزيه كيما يسلو.

ولم يطل انتظاره التأساء. فقد رزقه الله من مارية القبطية غلاما دعاه ابراهيم تيمنا باسم ابراهيم جد الأنبياء، الحنيف المسلم. وكانت مارية الى يومئذ ومنذ أهداها المقوقس النبي في مرتبة السراري، فلم يكن لها من أجل ذلك منزل الى جوار المسجد كما كان لأزواج النبي أمهات المؤمنين. بل أنزلها محمد بالعالية من ضواحي المدينة في المحل الذي يقال له اليوم مشربة أم ابراهيم بمنزل تحيط به كروم كان يختلف اليها فيه كما يزور الرجل ملك يمينه. وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس إياها مع أختها سيرين وجعل سيرين لحسان بن ثابت. ولم يكن محمد يرجو ان يعقب بعد ان ظل أزواجه جميعا من بعد وفاة خديجة ومنهن الفتاة الفتية ومنهن النصف التي أعقبت من قبل ولم تبشر احداهن بخصب عشرة أعوام تباعا. فلما حملت مارية ثم ولدت ابراهيم وقد تخطى هو الى الستين فاضت بالمسرة نفسه وامتلأ هذا القلب الانساني الكبير أنسا وغبطة، وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينه الى مكانة سمت بها عن مقام موالية الى مقام أزواجه وزادتها الى ذلك عنده حظوة ومنزلة. وكان طبيعيا ان يمس ذلك الى نفوس سائر أزواجه غيرة تزايدت أضعافا بانها أم ابراهيم وبانهن جميعا لا ولد لهن. ولم تكن نظرة النبي الى هذا الطفل الا تزيد هذه الغيرة كل يوم في نفوسهن اشتعالا. فهو قد اكرم سلمى زوج أبي رافع قابلة مارية أيما اكرام. وهو قد

عينة بأهلهم، كما ذكر وا ما كان لمن أسلم منهم من جوار الى جانبه وما لقومهم من مكانة بين العرب، ثم قالوا له: إن جثاك تفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا. فقام خطيبهم عطارد بن حاجب. فلما فرغ دعا رسول الله ثابت بن قيس ليرد عليه. ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال وأجابه حسان بن ثابت. فلما انتهت المفاخرة قال الاقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له. لخطيبه اخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولاصواتهم أعلى من أصواتنا. وأسلم القوم فاغدق النبي الامري وردهم إلى قومهم.

فأما بنو المصطلق فلما رأوا الصيرف فر هاربا خافوا طاقة أصرهم وأوفدوا إلى النبي من ذكر له أن الخوف في غير محل له هو الذي أدى إلى ماوقع من سوء التفاهم

ولم تكن ناحية من نواحي شبه الجزيرة الا بدأت تحس سلطان محمد، ولم تحاول طائفة أو قبيلة أن تقاوم هذا السلطان الا بعث النبي اليها بقوة تحملها على الاذعان بدفع الخراج والبقاء على دينها أو بالاسلام ودفع الزكاة

وفيما عينه على بلاد العرب جميعا حتى لاينتقض فيها منتقض وحتى يستتب الامن في ربوعها من أقصاها الى أقصاها إذ اتصل به نبأ من بلاد الروم انها تهيء جيوشا لغزو حدود العرب الشمالية غزوا ينمي الناس انسحاب العرب انسحابهم الماعر في مؤتة، وينمي الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف في كل ناحية ليقاتم سلطان الروم في الشام وسلطان فارس في غسان. واتصل به هذا النبأ مجسما أيما تجسيم. فلم يتردد برهة في تقرير مواجهة هذه القوى بنفسه والقضاء عليها قضاء يقضي في نفوس سادتها على كل أمل في غزو العرب أو في التعرض لهم. وكان الصيف ولما يكد ينتهي. والقيظ في أوائل الخريف يصل الى درجات تجعله أشد من قيظ الصيف في هذه الصحارى إرهاقا وقتلا. ثم ان المشقة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة شاقة تحتاج إلى الجلد وتحتاج إلى المؤونة وإلى الماء. إذن لامفر من ان يطالع محمد الناس بعزمه السير إلى الروم وقتالهم حتى يأخذوا لذلك عدتهم، ولامفر من أن يخالف محمد بذلك تقاليده في سابق غزواته، حين كان يتوجه في كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التي اليها يقصد تضليلا للعدو، حتى لايفشو خبر مسيرته. وأرسل محمد في القبائل جميعا يدعوها للنهيء كيما تعد أكبر جيش يمكن إعداده، وأرسل الى سراة المسلمين ليشاركوا في تجهيز هذا الجيش بما آتاهم الله من فضله، وليحرضوا الناس على الانضمام اليه حتى يكون من الاهبة بما يدخل الروع في نفوس الروم الذي عرفوا بوفرة عدتهم وكثرة عديدهم

بم عسى يستقبل المسلمون هذه الدعوة إن هجر أبناؤهم ونساؤهم وأموالهم في شدة القيظ ليقطعوا فيافي وصحارى مجدبة قليلة الماء ثم ليلقوا عدوا غلب الفرس ولم يقهره المسلمون؟! أفيدفعهم إيمانهم وحبهم الرسول وشديد تعلقهم بدين الله الى الاقبال على دعوته متدافعين بالمناكب حتى يضيق بهم فضاء الصحراء دافعين أمامهم أموالهم وابلهم مدبرين بسلاحهم منيرين أمامهم من النقع ما إن يكاد يبلغ المدونباه حتى يولي الأدبار لايلوي على شيء؟ أم تمسكهم مشقة الطريق وشدة الحر ومخافة الجوع والعطش فيتقاعسون ويتراجعون؟ لقد كان في المسلمين يومئذ من هؤلاء واولئك. كان فيهم اولئك الذين اقبلوا على الدين بقلوب ممتلئة هدى ونورا وتفوس طهرها ضياء الايمان فلا تعرف غيره، وكان فيهم من دخل في دين الله رغبا ورهبا. رغبا في مغانم الحرب بعد ان أصبحت قبائل العرب كلها لاتثبت أمام غزو المسلمين فتظلم لهم ثم يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون، ورهبا من هذه القوة التي تضطرب أمامها كل قوة ويخشى سلطانها كل ملك. فأما الاولون فأقبلوا لدعوة رسول الله خفافا مسرعين، ومنهم الفقير الذي يجد الدابة يحمل نفسه عليها، ومنهم الغني ماله بين يديه يقدمه في سبيل الله راضية نفسه طامعا في الاستشهاد والانحياز الى جوار الله. وأما الآخرون فتثاقلوا بدأوا يلتمسون الأعذار وجعلوا يتهامسون فيما بينهم يهزأون بدعوة محمد إياهم لهذا الغزو النائي في ذلك الجو المحرق. هؤلاء هم المنافقون الذين نزلت فيهم سورة التوبة، فيها أعظم دعوة للجهاد وأشد تخويف من عذاب الله يصيب من تخلف عن إجابة رسوله. قال قوم من المنافقين لبعضهم ليعض لاتنفروا في الحر فنزل قوله تعالى: «وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون».

التى يفزون على مثال اكثر الغزاة فى ذلك العصر وعلى مثال اوربا فى هذا العصر الحاضر . ولقد كان لهم من العذر فى ذلك ان ظروفهم الخاصة لم تكن لتهيىء لهم الاضطلاع بعبء حضارة معينة . لقد كانوا مسلمين وكان الطبيعى ان يرتعد أعداء الحضارة الاسلامية المهددة يومئذ بالانحلال تحت انقاض الجمود . لكن مقومات الحضارة الاسلامية كانت تعوز هؤلاء الزاحفين من قلب آسيا حيث كانت تحيط بهم اثناء مقامهم فى وطنهم صور من العقيدة والحضارة لا تتفق فى شىء مع صور الحضارة الاسلامية والعقيدة الاسلامية . ثم انهم أبدوا حرصا على لغتهم ونفورا من اللغة العربية . واللغة العربية كانت فى البلاد الاسلامية جميعا لغة الدين ولغة العلم ولغة الادب ولغة المقومات الاساسية جميعا لاية حضارة من الحضارات . لذلك كانوا اشد حرصا على مغانم الغزو منهم على تأييد الحضارة الاسلامية . ولذلك لم يفكر احد منهم فى رفع نير الجمود الذى اصاب المسلمين فى عقائدهم وفى فقههم وفى لغتهم وان حرصوا على ان يأخذوا من مصر ومن سائر البلاد التى غزوا مهرة الصناع ورجال الفن ممن وثقوا بمقدرتهم على تشييد المظاهر المادية وعلى توطيد اسباب الثروة والنعمة المادية

كانت النتيجة المحتومة لهذا الغزو التركى المعتمد على الملكات الحربية ، النفور من مقومات الحضارة الاسلامية الصحيحة ، ان ازدادت الأمم الاسلامية جمودا فى العقيدة وفى التفكير وان نشأت فيها طائفة من رجال الدين على مثال الطائفة التى قيدت المسيحية فى عصورها الوسطى بأثقل الاغلال : طائفة أنكر الاسلام منذ ظهوره حقها فى الوجود . ووضعت طائفة رجال الدين المقفلة نفوذها وحريتها وما تدعى من علم فى خدمة الغزاة الغالبين مما أدى الى استمرار الانحطاط والتدهور فى العالم الاسلامى الذى خضع للنير التركى . لكن هذا الغزو التركى كان له فى أوربا المسيحية نتيجة هى النقيض من هذه . نتيجة محسنة آذنت بانتقال مد الحضارة الى الغرب بمقدار ما كان من طردها فى الشرق الاسلامى ، وكانت مقدمة البعث الاوربى والحضارة الغربية الحاضرة

ظهرت هذه النتيجة التى أثمرت الحضارة الغربية فى بطء وأناة وبعد جهود شاقة ونضال عنيف عشرات السنين بل مئاتها . كان الجيل يعقب الجيل وفى كل جيل يبدو من هذه الثمرة أثر جديد . وفى هذه الاثناء كانت الامبراطورية التركية ينفسح مدى سلطانها الحربى ليزيد الامم الاسلامية جمودا وركودا . فلما آن للغرب أن يسترد باسترداده الحرية الانسانية مكانته اتجه الى هذه الامبراطورية التركية يريد أن ينتقم منها لنفسه كما وجه الغزوات الصليبية من قبل الى أمم الاسلام لينتقم منها . وحاولت اوربا بعد الحرب الكبرى ان تقضى القضاء الاخير على الرجل المريض وألقى لورد اللنبى تصريحه بأن الحروب الصليبية انتهت . يريد بذلك ان المسيحية قد انتقمت لنفسها انتقاما حاسما من الاسلام . وتلك لعمرى سخرية من القدر مرة . فلو ان شيئا اسمه الاعتراف بالجميل كانت تعرفه العلاقات الدولية لذكرت اوربا للترك فضلها الاول فى القضاء على الدول الاسلامية بالجمود وفى تمهيد الطريق للبعث الاوربى والحضارة الغربية الحاضرة . لكن الحياة لا تعرف هذه المعانى الا بمقدار ما تعاون هذه الحياة . فان هى وقفت فى سبيلها حطمتها وداستها وتخطتها الى ما هو خليق بمزيد فى الحياة .

كيف ادى الغزو التركى الى بعث اوربا والى الحضارة الغربية الحاكمة اليوم فى الشرق والغرب ؟! وكيف اضمحلت دولة الشرق حتى خضعت كلها لنير اوربا ؟! وهل اضطلعت الحضارا الغربية برسالة خاصة تتجه بالانسانية نحو كمالها وسعادتها ؟! وماذا كان موقف الشرق من الغرب فى هذه الظروف المختلفة ؟ وما موقفه اليوم ؟!...

سنرى .

محمد حسين هيكل

حتى أواسطها . وفى فترات متعاقبة متقاربة بعد ذلك امتد الى الهند والى جزر الهند الشرقية وتغلغل فى افريقيا وفى آسيا . وبذلك قامت فى العالم امبراطورية إسلامية مترامية الأطراف تنقلت عاصمتها من مكة الى دمشق الى بغداد الى القاهرة وأحيت فى العالم حضارة جديدة انكمشت أمامها الحضارة الرومانية والحضارة اليونانية ووقفت ازاءها المسيحية خائفة تترقب . وعن خوف المسيحية وعن ترقبها نشأت الحروب الصليبية متعالمة انظار أهلها جميعا الى بيت المقدس ، الى جواره ولد المسيح وفيه قام المسجد الاقصى وعلقت صخرة سليمان . وظلت هذه الحروب قائمة تثور حينا وتهدأ حينا ولا تصل المسيحية منها الى شىء مما تبغى حتى ظنت فى ختام الحرب الاخيرة الكبرى سنة ١٩١٨ انها بلغت غايتها بوضع انجلترا وحلفائها أيديهم على بيت المقدس وبنداء الفلد مارشال اللنبى قائد قوات الحلفاء فى الشرق الأدنى يومئذ قائلا : (اليوم انتهت الحرب الصليبية)

رغم هذه الخصومة الاصيلة فى النفوس والتى بدت من جانب أوربا منذ الحروب الصليبية الاولى فقد أبدى الشرق فى هذه القرون جميعا من التسامح الدينى ما يجدر بالمؤرخ المنصف تسجيله وتقديره . والامر كذلك بنوع خاص حين مجد الشرق وازدهار الحضارة الاسلامية فى ربوعه ، اى منذ فجر الاسلام الى ما بعد فتح الاتراك القسطنطينية وتوغلهم فى أوربا الى أسوار فينا . ففى تسعة قرون متوالية كانت النعرة الصليبية تجمع الجيوش فى ممالك أوربا المختلفة وتتجه بها تحت أمرة ملك انجلترا أو ملك فرنسا أو غيرهما من ملوك النصرانية قاصدة غزو المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم . ولم يكن ذلك لان الدول الاسلامية كانت تصد المسيحيين عن أداء الطقوس الدينية فى بيت المقدس . فقد كانت هذه الطقوس تؤدى وكان المسيحيون ، سواء منهم من استظل بلواء الدولة الاسلامية ومن قدم من بلاد أجنبية ، يقومون بها فى أمن وسكينة لا يكدرهما مكدر . وانما كان ذلك تعصبا للمسيحية حرسا من أهلها على الاخذ بالثأر . وكان المسلمون فى مختلف العصور يكتفون بصد الغزوات الصليبية دون أن يهبوا لغزو أوربا المسيحية انتقاما منها عن اعتدائها على ديارهم . بل كان هؤلاء المسلمون يحسنون معاملة الغزاة المسيحيين الذين يقعون فى أسرهم حتى سجل المؤرخون الاريبون ذلك لهم بعداد الاعجاب والفخر . ولم يغير تكرر الغارات من نفس المسلمين ولا هو أغراهم بالانتقام من لويس التاسع حين أخذوه أسيرا بالمنصورة ، ولا هو أغراهم برتشارد قلب الاسد حين كان فى سلطان صلاح الدين الايوبى وأيده . وليس للمؤرخ منصفا إلا ان يسجل للمسلمين بالاعجاب والفخر دفاعهم عن ديارهم التى اصبحت اسلامية ودخلت فى حوزة الاسلام منذ عصوره الاولى ، وأن يشهد بانهم كانوا على حق فيه ، بينما كان الصليبيون هم الثائرون المغيرون ، وبينما كان التعصب الدينى هو الحافز لهم على العدوان عدوانا لم يكتب لهم التوفيق فيه خلال خمسة عشر قرنا كاملة .

ما سبب هذا الاندفاع من جانب أوربا المسيحية ؟ وكيف بقى المسلمون ايام مجدهم يكتفون من هذا الاندفاع بصده دون مواجهته بغزو مثله ؟ أما اندفاع اوربا المسيحية فمصدره عاملان . أولهما ان الاسلام أغار فى اول امره على بلاد مسيحية كانت روما وكانت القسطنطينية من بعد ترجو ان تتخذها قواعد لازدياد انتشار المسيحية . وكانت الشام ومصر أهم هذه البلاد . وثانيهما ان الاسلام اقام من البلاد التى فتحها وتشرع عليه فيها سدا يفصل بين اوربا المسيحية وبقية العالم المعروف يومئذ ، والذى لم يكن يزيد على افريقيا وآسيا وأوربا . فأمريكا لما تكن قد اكتشفت . وقد بدأ الاسلام يصد تيار المسيحية فى اللحظة التى توقفها فاتحة النصر وبداية الوثبة الى قلب اسيا وافريقيا . فقد كانت الحرب السجال قائمة بين فارس المجوسية وبزانطة المسيحية ، وكان لفارس فيها الغلب اكثر الامر ، فلما بدأ الحظ يتغير فى هذه الحرب ليبتسم لهرقل عاهل المسيحية فينصره على المجوسية ويمكنه من استرداد الصليب الأعظم من فارس وإعادته الى بيت المقدس فى حفل عظيم أوفى فيه بنذره ان يسير من عاصمة ملكه الى المسجد الأقصى على قدميه يحيط به اتباعه وجنده ويتقدمهم هذا الصليب الاعظم رمزاً مقدساً للايمان والنصر ، فى هذه اللحظة وانه لفى هذا الحفل يفى بنذره إذ جاءه رسول النبى العربى بكتاب محمد بن عبد الله يدعو فيه هرقل ملك الروم الى الاسلام . ولم تمض سنوات بعد ذلك حتى كان بيت المقدس وكانت الشام كلها فى قبضة المسلمين وحتى وقف هذا الدين الجديد ووقف سلطانه ووقفت جيوشه الظافرة حائلا بين اوربا المسيحية والوثبة الى آسيا . وفى سنوات اخرى من بعد ذلك اندفع تيار الاسلام الى مصر والى شرق افريقيا حتى مراكش وحتى غزا المسيحية فى اسبانيا فوقف الدين الجديد وسلطانه وجيوشه حائلا بين اوربا المسيحية والوثبة الى افريقيا . فاذا ظلت اوربا المسيحية مكتئبة النفس غلا وحفيظة على هذا الدين الجديد وأهله ، واذا هى حاولت فى فترات كثيرة مختلفة ان تسير جيوشها الصليبية لغزوه وغزو أهله ، فلها من هذين العاملين عذر وشفيع ، ولها فيما

يملأن به النفس حرصاً على الأخذ بالثأر اكبر الرجاء في ان يكون لها على خصومها الفوز والغلب .

لكن جهود اوربا ذهبت مع ذلك هباء وتحطمت على صخرة هذا الاسلام الناشيء المطمئن الى عزه والى قوته . فلماذا ؟ وكيف تنحدر اوربا ولديها من الاسباب النفسية للظفر مايهيء ويجعله ميسوراً ؟ اعلة ذلك ترجع في رأيي الى جمود النصرانية يومئذ والى اجتهاد الاسلام . ففي هذه العصور الوسطى المسيحية كانت الكنيسة قد استأثرت بكل امر ووضعت يدها على كل شيء . كان الملك في حاجة الى رضى الكنيسة عنه والى مباركتها إياه ليطمئن الى ملكه والى طاعة شعبه إياه . وكان رجال الدولة يذعنون للكنيسة ويلتمسون بركتها . وكانت كلمة الكنيسة معتبرة كلمة الله وكلمة المسيح وكلمة الروح القدس نفسه ، لا يستطيع أحداً أن يرفع اليها باصرته إلا بنظرة تقديس وإجلال لا تشوبها خلجة تساؤل أو ريب . وكان واجب المتكلمين والكاتبين الاقدس أن يشيدوا بكلمة الكنيسة هذه ، أن يظهروا الناس على حكمة الله البالغة فيها . وبذلك استشرى سلطان الكنيسة الى كل نظام والى كل مجتمع وبلغ حتى دخل مع الاسرة دارها ومع الرجل قلبه فاحتل فؤاده واخذ عليه عقله وعاطفته وكل حياته . بذلك حملت الكنيسة وحدها عن الناس تبعاتهم وجعلت نفسها نائبة عن الله في المغفرة لهم : وبذلك استأثرت الكنيسة بحريتهم وبعقولهم وبضمائرهم فأصبحوا لها عبيداً سعداء بعبوديتهم سعداء بالطابع الذي طبعتهم وتطبعهم به . ولم لا يكونون سعداء وقد نفت عنهم الكنيسة كل تكاليف الحياة الانسانية . فليس لاحدهم أن يفكر مخافة أن يدفع به التفكير الى الخطيئة . وليس لاحدهم أن يحب مخافة أن يدفع به الحب الى الخطيئة . وليس لاحدهم أن يتصرف في أمر من الأمور برأيه مخافة أن يدفع به رأيه الى الخطيئة . والكنيسة وحدها هي التي تفكر للناس جميعاً وهي التي تدلهم على مايحبون ومالا يحبون وهي التي ترشدهم الى مايتصرفون به في جليل أمورهم وتافهها . رسمت لهم حدود كل شيء وجعلت تخطي هذه الحدود خطيئة . حتى حدود عواطفهم واهوائهم . حتى حبهم لازواجهم وأبنائهم . بل رسمت لهم كذلك طريق السعي والعمل وطريق الاستجمام والنوم . قيدت وجودهم الانساني بأغلال من حديد وجعلت منهم آلات لا تزيد الا بارادتها ولا تتحرك الا بأمرها ولا تتنفس الا هواءها . وآمنت هذه الآلات بأن هذا الجمود هو سبيل السلام ووسيلة النجاة والسلم الى السماء يرتقيه الانسان ليصل الى مقعده بين البررة الاطهار . اذا وصلت الارادة الانسانية الى هذا الفناء وكبلت حرية العقل وحرية الضمير بهذه الاصفاد فقد ضمرت فيها قوة الحياة فلم يبق لها على الحياة قوة ولا على أحد من أهل الحياة سلطان ، ولم يبق لها الى النصر والغلب سبيل

بينما كانت الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى تصل بالشخصية الانسانية الى هذا الجمود الذي يقعد بها عن أن تريد أو ان تعمل كان الاسلام في نشأته وفي فتوة شبابه يحطم كل القيود ويرفع عن الذاتية الانسانية كل عبودية لغير الله وحده إياه نعبد وإياه نستعين . لم يعرف هذا الاسلام الناشيء كنيسة ولم يجعل لاحد من الناس على أحد سلطانا ولم يجعل لعربي فضلا على أعجمي الا بالتقوى . لذلك مالبث الاعاجم من أهل فارس وأمثالهم من البلاد الخاضعة لملك الروم ان اعتنقوا الاسلام حتى رأوا فيه الحرية المطلقة للعقل والعاطفة والشعور ، الحرية التي تنكر الفوضى والاباحية انكارها للاستبداد والعبودية ، الحرية التي تعترف للعقل والقلب وللمنطق والالهام بحقها جميعاً في تنظيم حياة الفرد وحياة الجماعة بما يكفل للفرد السيادة وللجماعة الطمأنينة في حدود تقوى الله ورضاه على مانزل بها القرآن لا على ماتريدها أهواء ذوي الحكم والسلطان . لذلك نهل المسلمون من ورد هذه الحرية فعزوا بعقولهم وبقلوبهم علوم اليونان وفلسفتها وحكمتها وحكمة فارس وخيالها وشعرها . ولم يكن لاحد ولا لصاحب السلطان أن يصد عن ذلك ان لم يشجع عليه . وكيف يصد الحاكم عنه وانما هو وكيل المسلمين في حدود ما أمر الله به ومانهى عنه في القرآن الكريم . ان نظام الحكم الاسلامي لم يكن نظاما أو تقراطيا للحاكم فيه الكلمة العليا ، بل كان نظاما محدوداً خير من عبر عن حدوده أبو بكر حين ولي الخلافة اذ خطب الناس فقال : «أيها الناس قد وليت أمركم ، ولست بخيركم فان أحسنت فاعينوني ، وان أسأت فقوموني ، أطيعوني مااطعت الله ورسوله فيكم ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » وبالرغم من أن هذا النظام الذي رسم للحاكم حدوده الضيقة لم يلبث طويلا في هذه الحدود ، ومن ان الخلافة انقلبت ملكا عضوداً منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ، فان الحرية التي أباح الاسلام للمسلمين بقيت مكفولة لهم عصوراً طويلة يتمتع بها العرب وأهل الشام والفرس وأهل مصر وكل من استظل بسلطان الدين القيم مسلما كان أو من أهل الكتاب . وبهذه الحرية أمعن المسلمون في نهلهم من فلسفة اليونان وأدبهم ومن حكمة الفرس وخيالها ومن كل مايتصلون به أو يتصل بهم في البلاد التي تدين لهم أو تتعاهد وإياهم . والحرية الانسانية لاغالب لها ماتحطمت من حولها القيود وما انتعتم بها الانسان متاعا صحيحا . وقد ظلت هذه الحرية للمسلمين مكفولة الى أن جاء العباسيون فزادوا في سلطان الحكم المطلق خطوة جديدة بعد خطوة الأمويين . خطوة نقلت الحكم من الشورى الاسلامية الصحيحة الى الاطلاق الفارسي اطلاقا مهد للانحلال الذي أصاب سلطة الاسلام في بغداد فنقل الحضارة الاسلامية التي ازدهرت في آسيا طوال عصر الأمويين والعباسيين لتزدهر في افريقيا على ضفاف النيل ولتتخذ القاهرة مقراً لها . ولئن كانت القاهرة قد تأثرت الى حد غير قليل بما أصاب دمشق وما أصاب بغداد فانها احتفظت بالتراث الاسلامي الذي انتقل اليها كخير مايكون الاحتفاظ به ، لان حظا غير قليل من الحرية كان مايزال مسموحا به للعلماء والمفكرين والشعراء وذوي الرأي والمكانة من المسلمين المصريين ومن المسلمين الذين نزحوا الى القاهرة حين استقر ملك الاسلام فيها .

طبيعي أن لايوفق الصليبيون في غزواتهم بعد الذي رأيت من هذه المقارنة السريعة بين حالهم وحال المسلمين في هذه الفترة من فترات عصور المسيحية الوسطى . وطبيعي أن يزيدهم توالي الانحدار حقدا على المسلمين . لكن حقدهم لم يكن قادرا على شيء . فالجمود والتعصب حقودان بطبعهما عاجزان كذلك بطبعهما . والحرية والاجتهاد في صورتهما الصحيحة لايعرفان الحقد ولكنهما لايغلبان . ولذلك لم يقابل المسلمون غزوات الصليبيين بغزوات مثلها . ولذلك كان الصليبيون كلما داوت عليهم دائرة الهزيمة أرسلوا الى ديارهم فاستجموا زمنا يجترون خلاله هزيمتهم ثم تضطرم من جديد نار الحقد في نفوسهم بعد سنين أو عشرات السنين فيتجهزون لحرب صليبية أخرى يكون نصيبهم فيها الهزيمة التي كانت نصيبهم في سابقتها . وفيما بين الهزيمتين وخلال عشرات السنين هذه يطمئن الاوربيون ويطمئن أهل الشرق الى حياة سكينة وجد وسعي في مناكب الارض ابتغاء الرزق . وظل الحال كذلك الى أن جاء الأتراك من آسيا غزاة يفتحون الممالك ويدوخون الملوك ويظفرون بدول الاسلام أكثر مما يظفرون بدول المسيحية ثم يتوغلون في أوربا حتى تصدم أسوار فينا .

كان هذا نصيب الحروب الصليبية وكانت تلك اسباب فشل الصليبيين فيها . على ان واحدة من هذه الحروب الصليبية قد نجحت وقد بلغت من النجاح أكثر مما كانت تطمع أول امرها فيه . تلك هي الحرب التي أجلت اوربا فيها الاسلام من الاندلس .

فقد دخل الاسلام حين سؤدد سلطانه الى شبه جزيرة إيبيريا آملا ان يمتد منها الى فرنسا والى سائر اوربا ليتصل بالاسلام الزاحف من الشرق عن طريق الشام والاناضول الى المملكة الرومانية . لكن هذا الزحف من ناحية الشرق وقف بعد ان بدأ انقلاب نظام الحكم من الشورى الاسلامية الى الاوتقراطية الفارسية وبعد اذ آتى هذا الانقلاب ثمرته المحتومة . انحلال القوى المعنوية وتضعضع الايمان الصادق في النفوس . لذلك لم يتح للذين فتحوا الاندلس ان يتوغلوا في اوربا بعد ان صدتهم عن التقدم الى فرنسا فاكتفوا باقامة الدولة الاسلامية في اسبانيا . وظلت هذه الدولة قوية مزدهرة زمنا . لكنها اصيبت هي الاخرى في نظام حكمها بما اصيبت بغداد وسائر الاقطار الاسلامية . ثم انها اطمأنت الى النعمة المادية في الاندلس طمأنينة آتت ثمراتها .

وثمرات الطمأنينة الى النعمة المادية التنافس عليها والتحاسد في سبيلها والتناحر والتطاحن للاستزادة منها . وذلك ماحدث . وكان من أثره ان كثرت الامارات وان ضعف السلطان المركزي وان طمع المسيحيون في استردادها يؤمنون بانه حقهم . وشغلت سائر دول الاسلام يومئذ بمثل ماشغلت به الاندلس من الجري وراء مطامع الحياة الدنيا والتفاني في سبيلها تفانيا أنسى المسلمين انهم إخوة يجب ان يسرع كل منهم الى نجدة اخيه . وأجلت المسيحية الاسلام عن الاندلس واستعادت اسبانيا كلها وان فعلت بها ماوصفنا من جمودها عن ان تتأثر المسلمين في تراجعهم وان تتبعهم في افريقيا . وبذلك بقيت القوتان الاسلامية والمسيحية وجها لوجه يفصل بينهما البحر الابيض المتوسط وقد دب الى دول الاسلام انحلال كالذي أدى الى هزيمة المسيحية .

انحلال سببه هذا الجمود الذي اصاب المسلمين فجعل علماءهم ومفكريهم ينزلون لصاحب السلطان عن حريتهم ويضعون تحت تصرفه علمهم لقاء مايغدقه عليهم من نعم مادية كانوا أشد فرحا بها منهم بحريتهم وبعلمهم . ولذلك لم يقو على صد غزوة الترك الذين ظفروا بهم ثم ظفروا من بعدهم بالقسطنطينية وبما تلاها من بلاد المسيحية حتى فينا .

لم يكن الاتراك في هذا الغزو دعاة الى حضارة ولا دعاة الى حرية . بل كانوا غزاة طالحين في اسلوب الغزو وفي استغلال الامم

الألعاب الرياضية

شباب المشيب

انه لمن المستحيل أن نعين سنا محدداً لظهور علامات كبر السن في المخلوقات وخصوصا بني آدم ويكاد يكون ذلك وراثيا بعض الشيء لان العرق دساس ولكن طوارىء الامراض والعلل لها على كبر السن تأثير ظاهر .

فبعض الرجال والنساء عجزة في الخمسين وبعضهم شباب في الستين أقوياء في السبعين وعلى ذلك فهجوم الشيخوخة على البدن يختلف وقته باختلاف قوة مناعة البدن لصد تيار هذا البلاء الجارف ولكننا لا نرفض ان نسلم جدلا ان الانسان متى بلغ الستين وجب عليه ان يفكر كثيراً في عمله - في طعامه — في راحته — ويغير منها نزولا على حكم الشيخوخة وارادتها لان الانسان في هذه السن وبعدها يكون عرضة لمفاجآت مرت عليه سهلة في شبابه أصبحت الآن صعبة لا يحتمل بدنه صدمة من صدماتها

ويبدأ البدن بأكمله في التغيير من كل الوجوه في هذا السن حتى ولو لم يرث الانسان ضعفا او مرضا عن والديه فالعضلات يذهب نشاطها وحميتها والعواطف تخبو نارها والمخ تقل قوة استنباطه وعميق تفكيره ويبدأ المرء يفكر فيما بعد الموت تاركا التفكير في الحياة ومرحها وأوصابها. ولكن العجوز الصحيح المعافى المحافظ على صحته غير المفرط فيها يفكر في الحياة كما يفكر فيما بعدها مسروراً غير خائف من هذا الانتقال والتطور

والاجسام كما قدمنا منها ماورث الضعف ومنها ما اكتسبه باهمال صاحبه . منها عصبي المزاج سريع التأثر ومنها هادىء الطبع صبور ومنها ماهو عرضة للامراض مجتمعة ومنفردة ومنها ماهو قوي المناعة لا تجد الامراض اليه سبيلا

وليس أضر على أبدان العجزة من الامراض الآتية التي يجب الالتفات الى اعراضها والحذر منها لانها تفتت البدن وتتركه في عذاب دائم حتى يلقى حتفه وهي :—

امراض القلب — امراض الجهاز الهضمي — تصلب الشرايين — آلام الكلى — آلام المصارين — امراض الكبد

وكل رجل او امرأة حافظ في شبابه على تنظيم غذائه ولم (يدبغ) ولم يصب بالامساك المزمن أو الاسهال المستعصي أو أصيب باحدها ولم يهمله والذي لم يشرب الخمر والذي لم يدمن التفكير الماضي والذي كان دائب الخدمة المعقولة لجسده بالرياضة غير العنيفة السهلة المرحة ذلك هو الذي يعيش طويلا ويعيش سعيداً بعيداً عن الامراض والملل حتى يلقى ربه .

ولكي نضمن الحياة السعيدة في المشيب نقول :

أولا — يجب أن يلجأ الانسان بعد سن الستين الى الراحة (المعاش) فلا اجهاد في العمل أو التفكير بأي حال من الاحوال وفي النفس خوارق لا تسري على هذه القاعدة وأيضا لا يصح أن تكون هذه قاعدة عامة بل يصح لمن بلغ الستين أو الخامسة والستين أن يتدرج في الرضوخ الى الراحة المعقولة ولدينا الامثلة كثيرة فقد لاحظت حينما كنت ادرس الرياضة البدنية للجيش ان كان بين الضباط العظام والقادة الكبار وغيرهم رجال وخط الشيب مفارقهم ولكنهم شباب بنشاطهم . خرجوا من الجيش العامل وبعد حين لقيتهم فوجدت العطلة قد أحنت ظهورهم وفتت في عضدهم . وعلى ذلك يتعين على من يبلغ هذا السن من الناس أن يجمع بين الراحة والرياضة ولا يجنح بأي حال الى الكسل. ويحسن العجوز منا صنعا ويريح نفسه راحة تامة ان التفت التفاتا تاما لغذائه فالطعام الذي يسيغه أولاده واحفاده لا يمكن بأي حال أن تهضمه احشاؤه فجلوسه معهم وقت الاكل وانهماكه فيه لا يعود عليه الا باللذة الوقتية التي يعقبها الالم المستمر مما يتأتى به من التلبك المعدي والامساك الذي هو عدو الشيخوخة اللدود

واكل اللحوم الا بمقدار قليل لا يعود على العجوز الا بالضرر التام وكذلك كثرة النشويات والادهان والفطائر كلها تضره وينفعه اللبن واللبن الزبادي والفاكهة وكذا الخضروات السهلة الهضم مسلوقة

ولا بد متى لاحظ على نفسه الامساك ان يخرج منه بأسرع ما يمكن ولكن ليس بالشرب ولا بالمليينات بل بالفاكهة المسهلة والخضروات وهي كثيرة معروفة : وتمرينات البطن الخفيفة اليومية لازمة حتميه له . وكذلك تدليك الاحشاء يوميا نافع جدا . للذهاب بالامساك ويكون ذلك بعد التمرين على أن يشرب قبل مزاولتها قدحا من الماء الحار ولا بد من الحمام اليومي بالماء كما يطيقه صيفا وشتاء

وليحذر العجوز التعرض للبرد وللحر الشديد كذلك لان الزكام الواحد أو البرد الواحد يضر بصحته سنين فقوة احتماله ومناعته ضعيفة

ولا اظن كثرة لبس الملابس بعضها فوق بعض تفيد العجوز في الدفء بل يدفئه الطعام الموزون نسبيا والرياضة البدنية لتنشيط الدورة الدموية والحمامات والتدليك

محمود محمد البسيوني

الشرق والغرب

في العصور الوسطى

نبذة من كتاب الشرق الجديد للدكتور هيكل بك

« الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » . هذه الكلمة للشاعر الانكليزي كبلنج ترد على كل لسان ويجري بها كل قلم كلما تناول الحديث أمور الشرق والغرب . ومن الكتاب والمحدثين من يؤيدها ومنهم من ينقضها . ومنهم من يسلم بأنها تنطوي على جانب غير قليل من الحق ثم يحاول أن يجد الوسيلة لالتقاء الغرب والشرق والميدان الذي يلتقيان فيه. ولقد أتيح لي أن أقف من قبل عند هذه الكلمة وأن أحاول إيجاد الصلة بين الشرق والغرب كأنما كانت هذه الصلة غير موجودة من قبل . وانني اليوم لا أبتسم إذ أذكر هذه المحاولة من جانبي وأبتسم حين اقرأ كلمة كبلنج . فالشرق شرق والغرب غرب هذا صحيح . لكن الشرق والغرب التقيا منذ ابعد حقب التاريخ وهما يلتقيان دائما وسيلتقيان ما بقي في العالم شرق وغرب . والنضال مستمر بينهما لم تهدأ قط يوما ثائرته . وما عسى يكون التلاق اذا لم يكن في نضال . وهل الحياة في رأي العلماء من معاصري كبلنج وأصدقائه غير النضال . كذلك يقول داروين في نظريته عن النضال للحياة (Struggle For Life) ، وكذلك يقول شوبنهور عند حديثه عن فلسفة الحب وانه ليس هذا المعنى الخيالي الجميل الذي يتغنى به الكتاب والشعراء ، وانما هو الجهاد العنيف لتخليد النوع وتحسينه . فمن عجب أن يحاول الكتاب أو المفكرون خلق صلة بين الغرب والشرق وهذه الصلة موجودة منذ القدم ، وأن سكان مصر المسلمين الآن انما هم جميعا من أصل عربي صميم ، أما الأقباط فأكثريتهم منحدرة من شعوب شرقية وجاليات أجنبية كانت تقيم في مصر وقت دخول المسيحية

أذن فكيف نعلل تزايد عدد المسلمين في مصر وتناقص عدد الاقباط السكان الأصليين ؟ يقول بتلر أيضا ان العرب لما دخلوا مصر كانوا أقلية ضئيلة ، وقد زاد عددهم بعد قرن نحو عشرة أضعاف وذلك عند ما استتب الحكم لهم وقضت الحكومة على الثورات التي كانت تنشب من جانب المسيحيين ، حتى تضاءل عدد المسيحيين . وذكرت « المجلة الآسيوية » في أحد أعدادها الصادرة في عام ١٩٣٠ انه لما استتب الأمر للعرب في مصر وأجهزوا على بعض الفتن الداخلية ، رحلت قبائل عدة من نجد ومن الحجاز ومن اليمن ، وسارت الى الصعيد عن طريق القصير والسويس ، ثم حطت كل قبيلة رحالها في البقعة التي يوافق مناخها ومناخ الجهة التي كانوا يقيمون فيها ، ولذا فعادات وأطباع سكان الوجه القبلي المسلمين ، انما تغلب عليها النزعة البدوية والنعرة العربية حتى اليوم . ما سكان الوجه البحري فما هم إلا سلالات خليفة ممن نزحوا الى الدلتا من شمال افريقيا وجنوب أوربا والشرق وسوريا والاناضول وغيرها .

أما تناقص عدد الاقباط ، فيقول برتلو في نظريته التي نشرها عن عوامل الانحلال في السلالات القومية ، انهم عنصر يتزوج ويتناسل بعضه من بعض ، لا تلقحه دماء شعوب أخرى حتى يتجدد وينشط ويتكاثر ، فالايطاليون اليوم لا يمكنهم الادعاء بانهم أحفاد الرومانيين ، والفرس لا يستطيعون أن يثبتوا انهم نسل القرطاجنيين ، كذلك المصريون فلا يمكنهم أن ينتسبوا الى الفراعنة ، لانهم خليط شعوب تغلب عليها النزعة العربية .

« يتبع »

محمد امين حسونة

لا عذر بعد اليوم

فقد أصبح في مقدور كل طالب أن يرتدي من منتجات بلاده وهاهي

شركة مصر لغزل ونسج القطن

بالمحلة الكبرى

تقدم لك منسوجاتها القطنية والكتانية — فاطلبها وافخر بأنها مصرية

وهذا الالتقاء بينهما هو الذى أثار فى العالم حضارات العالم ، وهو الذى رفع فوق مجازر الحروب وأهوال التعصب الدينى قبسا بعد قبس من ضياء النور والهدى والعلم . وفى هدى هذا الضياء سار العالم نحو الكمال خطواته البطيئة القليلة خلال بضعة آلاف السنين التى نعرف .

وهذا الالتقاء بين الشرق والغرب لقاء نضال ينتهى مرة الى غلب واخرى الى هدنة وثالثة الى صلح ورابعة الى تعاهد وتحالف تجارى أو حربى هو بعينه الالتقاء بين دول الغرب نفسها لقاء ينتهى الى واحدة أو لاخرى من هذه الغايات .

وكما ان دول الغرب قد تحالفت فى حقب مختلفة لتناوىء دول الشرق ، كما تحالفت دول الشرق فى حقب مختلفة كذلك لتناوىء دول الغرب ، فقد حدث فى غير هذه وتلك من الحقب ان تحالف دول من الشرق واخرى من الغرب لتناوىء غيرها من دول الشرق أو الغرب ، أو من دول منهما متحالفة هى الاخرى

على أن التقاء الشرق والغرب لقاء نضال وتطاحن كان أكثر اتصالا على التاريخ من تفاهم الشرق والغرب ، أو من تفاهم بعض الدول من الشرق ومن الغرب . ولسنا نريد أن نفصل ذلك هنا فتفصيله ليس مقصد هذا الكتاب . ولكنا جميعا نذكر كيف كان الغزو متصلا بين مصر الفراعنة واليونان ، وكيف كان الغزو متصلا بعد ذلك حين استولى الاسكندر الأكبر على مصر حوالى سنة ثلاثمائة قبل الميلاد ، وكيف غزت مصر اليونان من بعد ذلك فى عهد البطالسة أنفسهم ، ثم كيف غزا الرومان مصر تحت حكم يوليوس قيصر وكيف انتهت دولة البطالسة المصرية بانتحار كليوباطره . هذا المد والجزر بين مصر واليونان وروما قد حدث مثله بين فنيقيا ومصر وبين فنيقيا واليونان وروما . وفى هذه العصور كانت الوثنية مشورة اللواء فى هذه النواحى المعروفة من عالم يومئذ فى صور إيمانها وطقوس عباداتها المتباينة المختلفة . ولم يغير ظهور موسى وبنى اسرائيل من هذا الوضع فى مد عالم يومئذ وجزره تغييراً يذكر . فقد خضع اليهود فى ذلك العصر لحكم روما خضوع إذعان وسكينة قانعين بأرض الميعاد والمقام حول قدس سليمان وما جاوره من الاماكن المقدسة ، فلما ظهرت المسيحية فى جوار قدس سليمان وفى أرض الميعاد كان طبيعيا أن يدس اليهود لها عند الحكام الرومانيين وأن يحاولوا إظهارها فى مظهر الثورة على سلطان الدولة . لكن المسيحية لقيت من نفوس الطوائف التى كانت مضطهدة حين ظهورها ، ومأ أكثرها كانت ، إقبالا عليها أن كانت تعدها النعمة فى السماء جزاء ما لقيت على الارض من شر وعنت . وبقيت المسيحية حظا موقوفا على هذه الطوائف المضطهدة أجيالا حتى اتاحت الاقدار لها ان تنفذ الى قلب حاكم رقيق العاطفة محب للضعفاء . وانتقلت المسيحية من روما الى البلاد التى كانت خاضعة لحكمها . انتقلت الى مصر والشام واليونان ، ثم امتدت من مصر الى الحبشة والى اليمن ، ثم جعلت تغزو فى بطء وسكينة بعض نواحى العراق فى الشرق ، وبعض نواحى أوربا البربرية اذ ذاك فى الغرب

وفى اواخر القرن السادس المسيحى ظهرت الدعوة الاسلامية . ظهرت اول امرها ضعيفة متواضعة يرعاها اليتيم الامى وبالعدد القليل الذى اتبعه ، قوية بالدعوة الى التوحيد والى الحرية والى الرحمة والى الاخاء دعوة تناولت القوى والضعيف والغنى والفقير والمترف والمحروم . ظهرت هذه الدعوة اول امرها ضعيفة متواضعة لم يشعر بها احد ولم يدع صاحبها الى اتباعه غير عشيرته الاقربين . لكنها كانت دعوة الى المثل الاسمى فى الايمان وفى الخلق وفى التضحية وفى تمنى الموت فى سبيل الحق والحرية والخير والفضل والعدل . لذلك استجاب اليها كثيرون من أهل مكة طيبة نفوسهم بما تلقى فى سبيل إيمانها من اضطهاد وتعذيب . وتعاقبت السنون والمؤمنون بالدعوة يزدادون عددا ويزدادون فى إيمانهم قوة وللعذاب فى سبيل هذا الايمان حبا . ثم عرض محمد نفسه على القبائل أثناء حجها الكعبة فاستهانت فى البداية بأمره . لكن كلماته انطبعت فى نفوس الكثيرين من أبنائها . وعرفت بلاد العرب أمر محمد وأصحابه ثم اشتد ساعده ببيعة العقبة الكبرى ، وبالهجرة الى المدينة ، وبانتصاره على قريش وبفتح مكة وبدخول العرب فى دين الله افواجا . وأرسل محمد رسله الى الملوك والأمراء من حوله يدعوهم الى الاسلام ويعدهم . عادة الدارين

ولقد أحاطت بمحمد حين دعوته بيئة معادية أشد العداوة . أحاط به العرب الوثنيون الذين كانوا أشد الناس له عداوة ، واليهود المنبثون فى أنحاء شبه الجزيرة وفى جنوب الشام ، والمجوس فى فارس ، والنصارى فى اليمن من الجنوب وفى الامبراطورية الرومانية والبلاد الخاضعة لحكمها من الشمال والغرب . لكن هذه الدعوة الجديدة لم تلبث ان ظفرت بهذه القوى جميعا . ففى أقل من مائة سنة عقب وفاة النبى امتد سلطان الاسلام الى الشام والى مصر والى شمال افريقيا حتى المحيط الاطلنطيقى وانتقل من مراكش الى اسبانيا كما امتد فى قلب آسيا

قبل ، بل هي دعوة الى صلة الحاضر بالماضي في امر الدين والدنيا بأوثق صلة وأمتنها .

فقد ذكر الكتاب الكريم قصص الأنبياء الذين سبقوا محمدا وتحدث عن ابراهيم وذكر نوحا وآدم ووضع بذلك صورة الحياة والمثل الأعلى الذي دعا اليه الرسل والأنبياء منذ اليوم الاول فيها . والحق ان الوسيلة الوحيدة لادراك ما في الوجود من حق لا وسيلة له إلا معرفة ما صور الناس في مختلف الاجيال والعصور هذا الحق به . وكلما ازددنا توغلا في أعماق الماضي ورجوعا الى اصول الحياة الانسانية ازددنا وقوفا على هذا الحق في مختلف صوره ، وازددنا بذلك ادراكا لأكثر هذه الصور دقة في وصف الحق ، وأكثرها لذلك بهاء وروعة .

واعتقد الذي لا تدور بخاطري خلجة شك فيه ان دراسة هذه الحضارات الغابرة التي قامت في مصر والشام والعراق وصور الشبه وصور الاختلاف بينها من شأنه أن يلقي كثيرا من الضياء على ما تطورت اليه الحضارة الاسلامية خلال هذه الخمسة عشر قرنا ، وجرت اثناء عصور طويلة منها مصير العالم ، وهي تزداد كل يوم انتشارا ، وان عدت عليها من حين لحين عاديات الزمن فركدت أو جمدت . فهذه الحضارة الاسلامية لم تنشأ طفرة ولم يكتمل نظامها في حياة النبي عليه السلام ، بل تكونت من بعده شيئا فشيئا باختلاطها بالحضارات المختلفة التي غزا المسلمون والتي غلبوا بعد ان تأثروا بها واثروا فيها . وكلما ازددنا في إدراك هذه الحضارة دقة كنا اكثر على بعثها قوة واقتدارا . وبومئذ تبرز الفكرة الاسلامية ، أو الفكرة العربية كما يحلو للبعض ان يسميها ، قوية ممتلئة جدة وحياة ونشاطا ، وثابة الى ميادين هذه الحياة التي تحيط بنا قدرة على ان توجهها الى نواح جديدة . إلى نواح ليست اغرقونية وليست العربية وليست اسلامية العصور الوسطى ولا هي اسلامية عصور الانحطاط التي تجاورنا وما تزال تغمرنا ، بل الى نواح تسبغ على الحياة الجديدة التي استمدت من العلم قوتها المادية روح الحضارة الاسلامية العريقة في سموها المعنوي . فدراسة هذه العصور القديمة هي إذن وسيلة لمزيد في دقة دراسة العصور التي خلفتها والتي تأثرت من غير ريب بها .

وان من فادح الخطأ الظن بأن الاسلام والحضارة الاسلامية قد عفت على ما قبلها وطمسته طمسا ، وان العرب قد استأصلوا كل من سواهم ممن أقام بالبلاد التي غزا الاسلام . ولبيان ذلك يجب أن نفرق بين الاسلام كدين والاسلام كحضارة : الاسلام كدين يقرر عنه الكتاب الكريم انه يعيد الاديان التي سبقته في صورتها الصحيحة ويزيل ما دخل عليها من تحريف الكلم عن مواضعه ويجلو الحقيقة الازلية الخالدة الى الناس كافة . وهو قد تم كعقيدة منذ اليوم الاول فلم يكن لاساسه ، أساس الايمان بالله وحده والاسلام له جل شأنه لا شريك له ، أن ترد عليه أية صورة من صور التطور أو التغير . أما الاسلام كحضارة فقد ظل يتطور على مر القرون وظل يتمثل الحضارات التي جاورته حتى كان ابن رشد والفارابي وغيرهم ممن نقلوا الفلسفة اليونانية الى العربية وممن عاونوا أكبر عون على بعثها عند ما بعثها الغرب مستعينا بهؤلاء الحكماء والفلاسفة المسلمين

وأقول اني لا أرتاب في ان العصور الاسلامية تأثرت بالعصور التي سبقتها هذا الذي قدمت من دراسة الفلسفة اليونانية ، ولما انتقل الى العرب من أدب الفرس . وليس معقولا أن يكون اليونان والفرس هم وحدهم الذين أثروا في الحضارة الاسلامية وأن تكون مصر والشام والعراق غير ذات أثر بين أو سطحي فيها . هذا ثم اني أومن بالوراثة إيمانا صادقا قويا . أومن بها في الجماعات كما أومن بها في الافراد . ولعلها في الجماعات أدق وأبقى . فان يسيغ عقلي لذلك ان أتصور امكان الانفصال بين زمن وزمن في بقعة واحدة من الأرض انفصالا يمحو كل صلة بين الزمنين . ولن يسيغ عقلي ان لا يتأثر الحاضر بالماضي ولو أصبح هذا الحاضر في يد قوة طارئة لها من السلطان كل ما يمكن أن يكون لها . وها نحن أولاء تغزونا الحضارة الغربية منذ أواخر القرن الثامن عشر الى اليوم ، أي منذ قرن ونصف قرن ، غزوا ذريعا . فهل محت هذه الحضارة مقوماتنا أو مقومات أية أمة شرقية أخرى . وهبها وصلت الى تغريب الشرق على حد تعبير بعض علماء الغرب فهل تنقطع صلة حاضر الشرق بماضيه ؟ ان قليلا من التفكير ليدلنا على أن ذلك لن يكون . ويدلنا على أن من يريد ان يفهم حضارة مصر بعد الف سنة ، ومن يريد ان يفهم حضارة الشرق بعد الف سنة ، لاغنى له عن ان يرجع الى كل العهود التي سبقت هذه الحضارة حتى يصل الى مصر الفرعونية والى ما قبل مصر الفرعونية ان كشف التاريخ عن شيء كان قبلها

ليست الدعوة لدراسة تاريخ مصر الفرعونية مقصودا بها

ولست أطيل عليكم . فقد جر والدي أصدقاؤه هؤلاء الى وكر من أوكار الفساد في عاصمة المديرية ، في يوم عقدت فيه لجنة الشياخات للنظر فيما لديها من شئون العهد ومشايخ البلاد . ومن ذلك الحين بدأت الليالي الساهرة التي كانت تقام في منزلنا تقل واتجه والدي بأنظاره نحو أسيوط فلم يكن يمضي يوم الا ليسافر اليها ليلة . وسمعنا انه وقع وحب غانية من بنات الهوى فلم نصدق . فلما فاتحته زوجته في ذلك لم يجرأ على الانكار .

قد يكون هذا طبيعيا يا أصدقائي . لكن ماذا تسمون عمل الرجل الذي يعود الى منزله والى جانبه خليلته المومس قد جاء بها ليقدمها لزوجته أولا ، وليقضي معها أياما في منزل الزوجية بعيدين عن أعين العواذل والرقباء !!

وامتدت يده الى المرابين يقترض منهم ويرهن لهم أطيانه . لكنه لم يكن يأبه لذلك وكان يقول لكل من فاتحه في شأنه من أهله انه يعرف كيف يسدد هذه الديون . حتى جاء يوم حمل الينا فيه بشرى انه استأجر من وزارة الاوقاف مائتي فدان سيؤجرها بدوره بالنقد وبذلك يسدد كل ما عليه من الديون . لكن هذه الأمنية لم تحقق ، اذ انه لم يجد من صغار المزارعين من يستأجر منه بالنقد الا قليلا . فأجر نصف هذا القدر صفقة واحدة وقبض نصف إيجاره مقدما . وأجر النصف الباقي بالأجل ، ثم أخذ المبلغ الذي حصل عليه وتقل الى خليلته ثم أخذها ومضى ... إلى القاهرة . ويقسم الذين رأوهما هناك إنه كان يشعل لها سيجارتها باوراق من البنكنوت المحترق ...

وكان طبيعيا أن يبيع من أطيانه بعد ان لم يبق فيها سهم واحد لم يرتهن . وقد فاتني أن أقول لكم انه كان وصيا على أولاد أخيه المتوفى فبدد إيرادهم فيما بدد مما استدعى استجوابه وسؤاله ثم القبض عليه آخر الامر بتهمة انه ائتمن فخان . وان أنس لا أنسى يوم جاء نبأ القبض عليه فراحت أمي تصرخ وتولول حتى امتلأ البيت عليها نساء ورجالا وغدونا كأننا في مأتم ، ولما جاء الليل ولم يفرج عنه أرسل في طلب «الخاف وبطانيه ومخدة» فعادت المسكينة الى صراخها وعويلها وظلت تلطم خديها وتهيل التراب على رأسها ، بينما بحث القوم عن «الست بهية» فاذا بها قد حزمت ملابسها وغافلت أهل البيت وعادت إلى مأخورها بعد أن خلفت وراءها جنازة ومأتما ...

وأفرج عنه في اليوم الثالث من سجنه بعد أن تعهد بسداد كل ما يظهره الخبراء الذين ندبوا لمراجعة الحساب في خلال أسبوع واحد . وكانت النتيجة ان باع مما بقي من أطيانه أكثر من النصف . أما النصف الباقي فلم يسلم هو أيضا من البيع إذ نزعت ملكيته بعد سنوات قلائل سدادا لدين وزارة الأوقاف

قال الصديق الغاضب : ولكن «بهية» ماذا فعلتم بها؟!

— لا شيء . يقولون انها وجدت ذات صباح مضرجة في دمائها . فقامت الشبهات حول والدي فقبض عليه من جديد . وفي هذه المرة تجلى عطف أهلنا علينا بصورة رائعة فكنت تراهم رجالا ونساء وقد اجتمعوا حول دار المركز والنيابة في انتظار ما يسفر عنه التحقيق الذي استمر أكثر من شهر . وأنفقت عماتي يومئذ من أموالهن مالا أستطيع حصره إذ وكل عنه ثلاثة من كبار المحامين تقول والدتي ان ما أخذوه لا يقل عن خمسمائة جنيه دفعها عماتي ثمنا لحياة أخيها حتى ثبتت براءته من تهمة التحريض التي كانت موجهة اليه

وكان أبي خلال هذه العواصف قد ترك مشيخة البلد ، وأقلع عما كان فيه ثم تاب وأناب ، ولو أنها كانت توبة متأخرة ، وعاد أدراجه إلى القرية بعد أن هجرها شهورا ، فكان يقضي فيها أغلب أيامه ثم يأتي لزيارتنا في كثير من الأحيان في بيت جدي الذي رفض أن يتخلى عن ابنته وحفيده . أما أنا فكنت لا أذهب إلى القرية إلا نادرا ، ونادرا جدا . وكنت إذا ما ذهبت ذهبت مع جدي في المواسم والأعياد . فكان أولاد الفلاحين إذا مارأوني في بذلتي الحمراء ذات البنطلون القصير جروا خلفي صائحين «العسكري أهو» !! وكان الذين يدعون العلم ببواطن الأمور يتهامسون فيما بينهم (هذا هو ابن الحضرية !!)

واني لأذكرانهم أركبوني ذات يوم حصانا لزوج إحدى أخواتي لأبي ، فأرقعني على الأرض فكسر ذراعي وشج رأسي ، فاعتقدت أمي يومئذ انهم حسدوني ، وأقسمت

إذن الى رد التاريخ على أعقابه ليصب فى منبعه ، ولاهى مقصود بها الى الاعراض عن دراسة تاريخ الشرق فى مختلف عصوره وبخاصة فى عصره الاسلامى الذى يؤثر أعمق الأثر فى تكويننا الحاضر ، كما تأثر هذا العصر الاسلامى بماسبقه أيام حكم الرومان واليونان وحكم الفراعنة تأثرا عميقا . بل إن هذه الدعوة ليقصد بها الى مزيد من وحدة البلاد المرتبطة على التاريخ منذ أبعد حقب التاريخ ، ولا يقصد بها مايزعم البعض من التفريق بين هذه البلاد ، يقصد بها الى اقامة هذه الوحدة على أسس علمية صحيحة لا على مجرد الفاظ وصيغ شعرية لاتقدم كثيراً

اذا كان الأمر كذلك فلماذا دعوا المصريين دون سواهم من الشرقيين الى دراسة مصر الفراعنة ؟ الاشىء أيسر من الاجابة على هذا السؤال . فدعوتي هذه كدعوة أحد أبناء الشام مواطنيه لدراسة الفينيقيين أو أحد أبناء العراق مواطنيه لدراسة أشور وبابل . ولو انى دعوت غير المصريين الى دراسة مصر الفراعنة لكان ذلك تراكلا غير جدير بمن يحترم أمته وتاريخه ومجده ، ولكان عقوقا للوطن لايرضاه لنفسه إنسان . وثم اعتبار آخر لا يقل عن هذا الاعتبار من ناحية العاطفة وهو لاشك أقوى منه من ناحية المنطق والعلم . فالمصرى أقدر من كل إنسان آخر على الادراك العميق لأسرار ماضى بلاده ، أقدر من كل من سواه على استجلاء حقائقه وابرازها واضحة يلمسها كل إنسان مصريا كان او غير مصرى . والله وري كذلك أقدر من كل إنسان سواه على استجلاء أسرار ماضيه وان بعد ما بعد فى اغوار القدم وعلى تجليه ما فيه من حقائق على الناس . وهلم جرا . فاذا وضحت هذه الحقائق بعد طول التنقيب والدرس والقت على الوجود سا طع ضيائها أمكن أن تتحقق وأن تتكون منها وحدة هى أقوى من كل وحدة تدور بخاطرها انسان . وحدة روحية قوية تنتظم الحاضر والمستقبل وتدفع الناس الى حضارة تتضاءل أمامها الحضارات التى عرفت حتى اليوم ، لانها تكون حضارة أرسع أفقا وأغزر مادة وأغنى بماضيها الأثيل العريق .

لوأن هذه الفكرة لم يقتصر تطبيقها على الشرق الادنى ، بل امتدت الى ماوراءه من بلاد الشرق الاقصى ، فماذا تكون النتائج فى شأن حضارة الانسانية ؟ وماذا يكون الاثر فى إقامة وحدة الوجود حقيقة ملموسة ؟ هذا بحث له مناح مختلفة ولذلك نرجئه الى فرصة أخرى .

محمد حسين هيكل

صور من الحياة

شيخ البلد

للاستاذ عبد الوارث كبير

. . ونفث دخان لفافته فى الهواء ثم رشف من كأسه رشفة مضاعفة . والتفت الينا وقد اعتدل فى جلسته وبدت عليه سيماء الجد ، وقال :

— الآن ! وقد جاء دورى . فسأقص عليكم طرفا من ذكريات الشباب . .

لكنه ما كاد يتم جملته حتى قاطعه أحد الرفاق فى حدة الثل المحتج قائلا : لا . لا . ذكريات الطفولة أولا . وبعد ذلك ذكريات الشباب . هكذا اتفقنا ياصديقى !

— مالكم انتم وذكريات طفولتى ؟ هبونى كنت لقيطا ! أتريدوننى أن افضح امامكم نفسى ؟ ومع ذلك فأنا لارى فى ذكريات طفولتى هذه شيئاً يستحق ان يكون موضوع حديث .

— ولو ! هكذا اتفقنا يا أبا عبده . ولقد قص كل منا ذكريات طفولته وما فيها من مخائف وأسرار ، ولم يبق إلا انت قال : اذن فاسمعوا . . انا لا اعرف بالضبط تلك الليلة المشئومة التى نزلت فيها الى هذا العالم الموبوء . ومع ان شهادة الميلاد تقول انى ولدت فى اليوم السابع من شهر مايو إلا اننى جد واثق من ان هذا التاريخ غير صحيح . فلنختصر الطريق اذن ، ولنقل انى ولدت فى سنة ١٩٠٧

— اوه ! اره ! هذا محال . بل هو الكذب بعينه ! ١٩٠٧ ! عجباً أى عجب ! وهذا الشعر الابيض فى رأسك . من أين جئت به ؟! ياالها من مغالطة مفضوحة .

— ولم المغالطة ياصدقائى ؟ هبونى ولدت قبل ذلك بعشر سنوات . أو بعشرين سنة . ماذا يهمكم ؟ لقد ولدت والسلام .

— ثم ماذا ؟

— وما أظنكم تطالبوننى بان اقص عليكم كيف ولدت ، ولا كم قاست امى فى ولادتى من آلام وأوجاع ، ولا كيف قضيت بعد ذلك سنتى الرضاع . وبحسبكم ياصدقائى ان تعرفوا انى وعيت لنفسى فاذا بى لا اعرف أبى . .

— مسكين ! !

— لم اكن لقيطا بالطبع . ولكن امى كانت طالقا

وكانت يومئذ تقيم فى بيت والدها . وكان شيخاً تقياً تلقى علومه فى الازهر الشريف ثم عين إماما وخطيباً لا كبر مساجد البندر فقطع بذلك صلته بالقرية وما فيها ، اللهم إلا اذا استثنينا بعض زيارات كان يقوم بها لأهله فى المواسم والاعياد ، واذا استثنينا ايضا هذه الوفود من اقربائه وأهل بلده الذين كانوا يقدمون الى البندر لقضاء حاجاتهم فلا تملوعهم أنفسهم على العودة قبل ان يزوروا الشيخ ليتبركوا بصالح دعواته ! لكن الشيخ لم يكن من الغباء بحيث يغيب عن ذهنه انهم انما جاءوا لتناول الغداء والشاى !! ومع أن اغلبهم كان يقدم (ويده فاضية) إلا ان بعضهم كان لاينسى أن يأتى للشيخ بهدية من البصل أوالفول الاخضر أوالجبن او الزبد او اللبن الرايب او (العدس المدشوش) او (الملانة) . . وهلم جرا

وكان والدى فى ذلك العهد يأوى الى زوجة اخرى ، اظنها ثالثة زوجاته أو رابعتهن ، لا ادرى . وكان يومئذ قد عاد الى القرية حيث ولى مشيخة البلد بعد وفاة والده ، وحيث زوجاته وأولاده الباقون . وتصوروا يا أصدقائى طفلا يشأ فاذا هو محروم من عطف والده . وان كنت ارى لزاما على ان اعترف لكم بانى لقيت من عطف جدى وجدتى مالست اجد من نفسى القدرة على نسيانه ابدا ، ولعل ذلك كان واجباً الى انى كنت يومئذ ابن ابنتهما البكر ، اولعله راجع الى انه لم يكن لهما اولاد ذكور .

على أن والدى مالبث ان راجع أمى وأعادها الى عصمته ، بعد ان اشترط عليه والدها تنفيذاً لرغبة زوجته ، التى كانت (حضرية) جاء بها جدى من القاهرة أيام كان مجاوراً فى الازهر ، أن لايعيدها الى القرية لانها لاتريد أن تعيش تحت سقف واحد مع زوجاته الاخريات ، بين ثغاء الغنم ونباح الكلاب ، وتحت أقدام الجواميس والابقار .

***

كان والدى رجلا متلافا ، وزادته حياة (البندر) إمعانا فى الاتلاف والاسراف . وهذا طبيعى ، فرجل الريف الذى اعتاد أن يعيش بين الفلاحين والفلاحات ، وان لايقع بصره إلا على أعواد الذرة وحطب البامية والقطن ، اذا رأى أمامه وردة يانعة أتحسبونه يحجم عن التهامها ؟! وكذلك كان أبى . فقد كانت حياة المدن يومئذ بالنسبة له أشبه بمائدة قد صف عليها من ألوان الطعام مالذ وطاب ، ثم جىء بها الى رجل يكاد الجوع يقتله ، فانقض عليها انقضاض الوحش على فريسته وظل يأكل ويأكل ويأكل حتى وقع على الارض آخر الامر لفرط ما حشا امعاءه وهو لايشعر ولا يعى

وكان قد ورث عن أبيه أربعين فدانا الا قليلا . وكان هذا القدر يعتبر يومئذ ثروة من أكبر الثروات فى القرية فلم يكن فيها — حتى العمدة — من يملك ثلثه أو نصفه على أكثر تقدير . لكن هذا القدر لايكفيه . لايكفى تلك المآدب والحفلات التى كان يقيمها كل مساء تقريبا لموظفى المركز ابتداء من المأمور حتى عامل التلغراف ! ولعلكم تعرفون السر فى إقامة هذه الحفلات . فهو لايريد أن يفارق البندر أو يمر مع الداورية . وحتى إذا كان لابد من ذلك فليكن فى النهار . أما فى الليل فيكفى أن يقضى سهرته مع حضرة المعاون أو حضرة الملاحظ ليفتهى كل شىء . لكن هذه السهرات العادية مملة ومقوتة ، ثم هى اكثر من هذا ليست من الصنف الذى يروق معاونى الادارة وضباط البوليس . فلتكن اذن سهرات بالمعنى الصحيح . لتدر الكؤوس وتذبح (الدناديى) والحمام ولتقم فى البيت كل مساء وليلة ! أليس الشيخ مصطفى قد غدا صديقا لحضرات المعاونين والملاحظين ؟ ثم أليس الشيخ مصطفى هو وحده الذى يجرأ من بين زملائه جميعا على دعوة المأمور ووكيل النيابة وحكيم المركز لتناول العشاء على مائدته فلا يخيبون له أمنية أو رجاء ؟ ثم أليس هو قد غدا بذلك محط أنظار الناس من أصدقائه ومعارفه ، حتى عمد البلاد المجاورة وأعيانها الذين عرفوا مبلغ اتصاله بالموظفين فكانوا يستعينون به على قضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم ، وهو لايخيب لأحد منهم رجاء ، كما لم يكن أحد من هؤلاء الموظفين ليخيب له شفاعة . وصدق المثل العامى اذ يقول : « اطعم الفم تستح العين » !

وكان أبى زير نساء ! أعترف لكم ! وقد قوى ذلك الداء من نفسه ! كبابه على الخمر من ناحية ، وعشراء السوء من ناحية أخرى . وهنا أستميحكم العذر يا أصدقائى إن أن دعوت الله أن ينتقم ! ينتقم لامى ، تلك الحزينة البائسة التى كانت ترى الهوة التى كان أبى يتردى فيها وهو لايدرى فتشفق عليه وتروح تنصحه فلا يكون جزاؤها إلا اقارص القول وبذىء السباب .

موقف مصر

من الشرق والشرقيين

للاستاذ مصطفى فهمى

اثيرت أخيرا حول موقف مصر من الشرق العربى احاديث وأقاويل لم تقتصر على الاقطار العربية بل تقدمتها الى مصر نفسها حيث قامت بين ذوى الرأى فيها مناقشات حول نزعة مصر وتحليلها نفسولوجيا وتاريخيا

وقد وقفنا على اراء قيمة وحجج قوية وحقائق صحيحة . ولم يكن ذلك باعثا على الوصول الى تفاهم . بقدر ما كان مؤديا الى تفاقم الخلاف

ولا يهم الآن ان نأتى برأى جديد فى الموضوعات التى اثيرت بقدر مايهمنا ان نوفق بين الاراء المختلفة ونرفع الحواجز المفتعلة بين وجوه النظر المتعددة

وقبل ان نتعرض لموقف مصر من الشرق العربى علينا ان نتساءل عن مدلول الالفاظ التى نستعملها فى هذا المقام. فنحن نسمع ونقرأ عبارات الشرق العربى والوحدة العربية والعالم العربى والرابطة العربية والوحدة الشرقية والرابطة الشرقية

وتستعمل هذه العبارات جزافا وبغير حساب دون مراعاة لمدلولها الجغرافى والاجتماعى. والتساهل فى استعمالها ادى الى سوء تفاهم بعيد المدى. وتحديد مدلولات هذه الالفاظ يستدعى الالمام بالحركات الاجتماعية التى ظهرت فى أنحاء الشرق كله دون الاقتصار على الحركات الخاصة بالاقطار العربية وحدها . مع الاشارة الى حقيقة موقف مصر من كل حركة .

ولنبدأ (بالوحدة العربية) أعم العبارات شيوعا . وأكثرها غموضا وأغناها التباسا . وأشدها مرونة . فالبعض يفهم من (الوحدة العربية) ضم الاقطار العربية كمصر وفلسطين وسوريا والعراق من الوجهة السياسية والاجتماعية. والبعض الآخر يفهم من (الوحدة العربية) ضم جميع الشعوب المتكلمة بالعربية فى اتحاد سياسى واسع النطاق ، فتدخل فيه طرابلس ومراكش والحجاز واليمن أيضا . وفريق ثالث يفهم من (الوحدة العربية) ايجاد روابط أدبية وعلمية واجتماعية بين جميع الامم التى تتكلم العربية بدون تمييز فيدخل فيها حتى الجاليات العربية فى أمريكا الشمالية والجنوبية . وهناك آراء مختلفة تفهم من الوحيدة العربية غير ماذكرنا .

وعجيب كل هذا التشعب فى تأويل عبارة لاتحتاج لهذا الاجهاد العنيف. (فالوحدة العربية) بكل بساطة عبارة عن قضية سياسية جاشت بقلوب العرب من أبناء شبه الجزيرة العربية كلها . وكان ذلك اثناء الحكم العثمانى . حيث كان ضغط الاتراك واساليب حكمهم الملتوية مثيرا للنخوة العربية . والاباء العربى . فهب العرب . وقاموا بحركة كونت (القضية العربية) واتخذت شكلا جديا خصوصا بعد إعلان الدستور العثمانى . الى ان كانت الحرب الكبرى فقامت الثورة العربية أملا فى انتهاز الفرصة لتحقيق (الوحدة العربية) . وحقا كانت الفرصة ذهبية . وكان وعد الحلفاء للعرب بتحقيق أمنيتهم ، وانقاذهم من الحكم العثمانى قد بعث فى النفوس الآمال وتوقع الجميع ان (الوحدة العربية) محققة . وانها على الابواب. ثم خيب الاستعمار هذه الامال. وانهارت أمانى العرب فاقتسم الحلفاء بعض الولايات العربية . ووزعوا البعض لآخر . واستحالت (الوحدة العربية) المنشودة الى دول وممالك يحاول كل منها ان يستقل بملوكها . وانتدابها . واستقلالها الشكلى .

وقد أسىء فهم موقف مصر من هذه الحركة العربية . فقبل الحرب الكبرى كان الرأى العام فى مصر متحمسا ومقتنعا ايمانا بفكرة — الجامعة الاسلامية — وكان موقف مصر من الدولة العثمانية مختلفا عن موقف العرب كل الاختلاف . فقد كانت مصر ترى فى الدولة العثمانية معينا لها ضد الاحتلال البريطانى . فى حين كانت الدولة العثمانية فى نظر العرب هى مصدر الاستعباد والارهاق . ولا شك ان ظروف مصر وظروف العرب كانت تضطر كل منهما اضطرارا للوقوف موقفين متعارضين

فلما كانت الحرب الكبرى. وكانت الثورة العربية ضد الدولة العثمانية . تأثر الرأى العام فى مصر لموقف العرب العدائى من الخلافة التى كانت فى نظر المصريين عندئذ رمزاً دينياً . ووسيلة معنوية لربط العالم الاسلامى برابطة قوية . فلما وضعت الحرب الكبرى اوزارها . وتكرنت الممالك العربية على اسنة الحراب الانجليزية . شعر المصريون بغضاضة . واعتبروا بسوء نية الحلفاء . وهذا منشأ عدم فهم المصريين لحقيقة اغراض زعماء العرب فى ذلك الوقت . وترتب على ذلك اساءة فهم كل ماصدر عن ملوك العرب من اعمال وسياسة . وماقام به العرب من حركات مختلفة. واستولى على الرأى العام المصرى شكوك وأوهام . مصدرها العطف الشديد . والالم المرير لرؤية أعضاء (الوحدة العربية) مفككين مبعثرين فى ظل الاستعمار الاوربى فى حين انهم كانوا (موحدين) فى ظل الحكم العثمانى

فمصر تحترق غيرة . وتلتهب اخلاصا للقضية العربية وتود من صميمها أن ترى للعرب دولة موحدة . ووحدة كاملة . وما كانت لتقصر فى معاونة العرب على تحقيق أمنيتهم. ولكنها عاجزة كل العجز لانها لم تحقق امنيتها الخاصة فقد كانت مصر فى مقدمة الشعوب الشرقية فى نهضتها قومية حتى ضربت أروع الامثلة فى يقظة الروح الوطنية. وقد استنفد جهادها الوطنى قواها وتفكيرها . فاذا عجزت عن الاشتراك عمليا فى القضية العربية . فلانها لم تلتئم بعد من قضيتها المقدسة التى هى قضية وجود أوعدم . حياة أوموت . وما كان أحد يرضى لمصر ان تترك علم الجهاد وتتراخى فى رفع لواء الوطنية وتتهاون فى حمل مشعل الحرية قبل ان تحقق امانيها القومية . وتنال مطامحها فى الحياة وتتمتع بحقها فى الوجود

وهى على الرغم من ظروفها الدقيقة. لم تفرط فى القيام بواجبها. بل ان ماتحمله مصر نحو العرب والوحدة العربية والشرق والشرقيين لا يحتاج لوصف . فهو متجسم فى حماس العامة من الشعب وملموس فى إخلاص وعطف الخاصة

أما مستقبل (الوحدة العربية) المنشودة . فغير متفق عليه. وخير حل للموقف هو الرجوع للوضع الجغرافى والاقتصادى للمستمد منه مايجب أن تكون عليه (الوحدة العربية) فى المستقبل. ولايكون ذلك إلا بضم الاقطار التى فى شبه جزيرة العرب من نجد والحجاز والعسير واليمن وغيرها الى سوريا والعراق وفلسطين وتكوين (اتحاد عربى) يخضع للنظام الكنفدرائى — أى اتحاد تمهدى مركزى. وأول خطوة يمكن الشروع فيها هى الغاء الحواجز الجمركية بين هذه الاقطار كلها . وإيجاد نظام يشبه نظام (الزلفرين) فى المانيا قبل توحيدها . ثم إيجاد حكومة مركزية لتصريف شؤون هذا (الاتحاد العربى) مع إعطاء شىء من السلطة الداخلية للولايات التابعة له

وهذا الحل هو المنفذ الوحيد لوضع حد لمشاكل العرب جميعها . لانه أولا متمش مع الاوضاع الجغرافية والاقتصادية وثانيا لانه منطبق على الماضى التاريخى لهذه الاقطار وثالثا لانه يوطد السلم فى بقعة كثرت مشاكلها وتعقدت أحوالها

(فالوحدة العربية) إذن قضية داخلية فى قلب (العالم العربى). وهناك قضية عامة تعددت أسماؤها واتحد مدلولها ترمى الى ايجاد رابطة بين المتكلمين بالعربية. ولهذا يستعملون لفظة (الرابطة العربية) تعبيرا عن هذه الفكرة فى حين ان اللفظ الوحيد الذى يعبر عنها بدقة هو (الجامعة العربية) لان اللغة هى عنصر وقوام هذه الرابطة . ويختلف الكثيرون فى فهم حقيقة وغاية (الجامعة العربية) إنهم يقولون بوجوب العمل على ايجادها ويدب الخلاف على كيفية العمل والغاية من العمل. ولو تريثوا قليلا لابتسموا من أنفسهم ومن اختلافهم لان الجامعة العربية موجودة بالفعل وهى تضم حوالى ثمانين مليون عربى يتفاهمون بالعربية ويرجعون فى ثقافتهم الى تراث عربى ويتصلون دواما عن طريق الصحافة والمؤلفات وغيرها ويعطفون على بعضهم عطفا طبيعيا ويرجعون بماضيهم الى تاريخ مشترك وحضارة واحدة .

ولا تحتاج (الجامعة العربية) إلا لتنظيم الروابط بين أعضائها ، وبث روح التعاون الفكرى بين افرادها . ويكفى مصر فخراً انها قبلة انظار هذه الجامعة الحية. ومحط آمال ابناء العربية جميعاً

اما مستقبل (الجامعة العربية) فلا يمكن تحديده . فان التجانس الروحى والفكرى والنفسى بين اجزائها يشجع على فرض كل الفروض . والاسترسال فى تغذية الآمال . دون ان نتهم احداً بالتعلق بأذيال الخيال . ولعل اقصى الاحتمالات . هو رؤية (الجامعة العربية) جبهة سياسية متحدة

وهناك حديث عن (الرابطة الشرقية). وهى فكرة تجول فى اذهان الامم الشرقية دون مراعاة للفروق اللغوية او الجنسية او الدينية . هى شعور بماضى الشرق المجيد . وبتحدى الغرب له فى حاضره ومستقبله . ورغبة عنيفة ترمى الى الوحدة الشرقية لتجابه الوحدة الغربية ولترغمها على احترام الشرق وحقوق الشرقيين. ومن هنا نبتت فكرة تكوين (عصبة امم شرقية) فى جو سلمى تعمل على توطيد السلام فى الشرق . وحل مشاكله الدولية . كما تفعل الآن (عصبة الامم) الاوربية . وهذه الفكرة ليست متطرفة بقدر ماهى معقبة التنفيذ . لانها عمل دولى اكثر منه عمل شعبى . وهو من اختصاص الحكومات الشرقية. وفوق متناول الافراد والهيئات. وليس معنى ذلك انها مستحيلة او ان الحكومات الشرقية لا تؤيدها. ولكن لأن هذه الفكرة تخضع لقانون اجتماعى وهو ان مركز (الجذب الدولى) يحدد دائما اتجاه عقرب الحوادث السياسية . و (مركز الجذب الدولى) موجود الآن فى غرب اوربا . ولن تستطيع الحكومات الشرقية الفصل فى تنفيذ اقتراح من الاقتراحات دون موافقة القابضين عن مركز الجذب الدولى . وعليه فتحقيق فكرة (عصبة امم شرقية) متروك للزمن وحده . فهو وحده الكفيل بتحقيق الامنيات . ولعل فكرة عقد (مؤتمر للطلبة الشرقيين) التى ظهرت فى مصر تكون عاملا من العوامل الفكرية التى تسبق عادة المشروعات العملية

ويحسن ان نطلق عبارة (الجامعة الشرقية) على هذه الحركات. وعمادنا فى ذلك ان هناك عنصرا مشتركا يشجع على ايجاد مثل هذه (الجامعة الشرقية) وهو ان الاسلام يسود معظم الامم الشرقية. وللدين أثره الاجتماعى المعترف به فى تكوين المجتمعات. وليس معنى ذلك ان (الجامعة الشرقية) تكون ذات صبغة دينية. كلا. فلسنا فى عصر الاتجار بالعقائد وفرض الديكتاتوريات الدينية. وغاية ماهنالك ان وحدة الدين فى الشرق تعاون على تكوين (الجامعة الشرقية) وتساعد على سرعة ايجادها

ولقد كانت مصر مركزا لعدة حركات ترمى الى تحقيق (الجامعة الشرقية) بالوسائل الادبية والاجتماعية.

بقيت امامنا المشكلة الخادعة التى تدور حول (مصر الفرعونية) و(مصر العربية). لقد اجاد كل من خاض غمار هذه المشكلة القومية لان كل ماصدر كان عن ايمان من الطرفين وعن عقيدة قوية. مما جعل لاقوالهما اهمية وتأثيرا بعيدى المدى.

وكانت وجهة نظر الطرفين وجيهة فى ذاتها. صحيحة فى نفسها. ولكن غاب عن أنصار (مصر العربية) شىء هو كل شىء فى المشكلة التى لاوجود لها فى الواقع. هذا الشىء هو أن القومية المصرية لاتتعارض مع (الجامعة العربية) المنشودة. فالجامعة العربية الموجودة بالفعل تضم جميع القوميات المتكلمة بالعربية على اختلاف أجناسها، وتاريخها وأوضاعها الخلقية والاجتماعية. ونحن فى عصر أدرك أن الوحدات إذا لم تكن قوية متماسكة فان المجموعة مهما اتسعت تضعف وتتفكك. ولهذا ظهر الاهتمام بشخصية الفرد فى الجماعة. وشخصية الهيئات فى الدولة. وشخصية الاسرة فى المجتمع. لان هذه الذرات يقوم عليها بناء المجتمعات

فبث روح القومية فى مراكش وطرابلس ومصر والعراق وسوريا وتقوية شخصية كل شعب من هذه الشعوب. من العوامل الضرورية لاقامة بناء (الجامعة العربية) شامخا. عاليا. شاهقا. لان الشعب الذى لايفقه واجبه نحو كرامته. ولايدرك معنى لشخصيته ووجوده. ولايقيم وزنا لشعوره وعاطفته وكيانه. لن يرجى منه خير (للجامعة العربية). فاذا بحث كله شعب عن العناصر التى تبث فى نفسه الشعور بالقوة والعزة. وتشيع فى قلوب إبنائه الثقة فى المستقبل. بتخليد ذكرى الماضى. وتذييم بين افراده كل الوان المجد الماضية لتثير فيه النخوة والكبرياء. اذا توفر كل شعب عربى على ذلك. فالظن ان عمله يكون موضعا للشك. ومثارا للاقاويل.

فاذا بحثت مصر عن ماضيها تستوحيه املا فى المستقبل. وتستلهمه مايقوى رجاءها فى الحاضر. فلن تسىء بذلك الى (الجامعة العربية) فقد قامت مصر فعلا وتقوم بواجبها نحو تخليد ماضيها. والنهوض بحاضرها. دون تقصير فى خدمة (الجامعة العربية). التى يعتبرها المصريون على اختلاف طبقاتهم. ويضيق المقام عن الالمام بما قدمته مصر الى الجامعة العربية، من خدمات وتضحيات تتجسم فى المؤتمر الاسلامى. وفى جهاد ابنائها فى الاقطار الاسلامية لانشاء (الجامعة الاسلامية) بفلسطين وجمع الاموال اللازمة لها. وفى الصحافة المصرية وما تظهره من عناية خاصة بالشئون العربية. وفى عطف الرأى العام المصرى وما يشعر به من عاطفة صادقة لانحو الشعوب العربية وحدها. بل نحو الشرق والشرقيين.

ان هذا التطير من فكرة الفرعونية لامحل له مطلقا. فاننا لو نبذناها جميعا. فان الآثار الفرعونية تثيرها وتذيعها على الآباء والكتب التاريخية تتلوها على الابناء والاحفاد. والعالم المتحضر ينادينا كموطن لحضارة أقامها الاجداد، فأين المقر من آثارنا وتاريخنا وحضارتنا؟

ان المصرى الذى يتنصل من ماضيه ليجامل من يتهكم على مصريته. لن تسعفه كرامته اذا افتقدها. ومن تهاون فى كرامته فلا خير فيه للوطن وللجامعة العربية التى نقدسها جميعا. ونعتز بها جميعا. لانها تحمل الخير للشرق العربى وحده. ولكن لان قوتها. قوة للحضارة. وسلامتها. توطيد للسلام وتقدمها. تقدم للانسانية.

مما سبق نصل الى النتائج الآتية:

أولا — ان (الوحدة العربية) تعبير أسىء فهمه واستعمل فى غير موضعه. واطلق على غير مدلوله (فالوحدة العربية). قضية خاصة بالاقطار التى بين دفتى شبه الجزيرة العربية بما فيها العراق وسوريا وفلسطين. ومصير (الوحدة العربية) هو تكوين — اتحاد سياسى — يخضع للنظام الكنفدرالى، فتكون هناك مركزية فى نظمه السياسية والحربية والاقتصادية، ولامركزية فيما عدا ذلك من الشؤون الاجتماعية والدينية والتعليمية. وموقع مصر الجغرافى لايجعل لها مكانا فى هذه الوحدة

ثانيا — ان (الجامعة العربية) هى اللفظ الصحيح الذى يعبر عما يجول فى نفوس الامم المتكلمة بالعربية وقد قوم الكثيرون انها غير موجودة وانه يجب السعى لايجادها، ولكنها موجودة بالفعل، ولاينكر وجودها إلا المتجاهل للعوامل التاريخية واللغوية والفكرية التى تكاتفت على تكوينها وتخليدها. وقد هزأت

فذكروه بما نهى عنه فقال. «ماعن الحزن نهيت وانما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء. وانما ترون بى اثر مافى القلب من محبة ورحمة. ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة.» او كما قال. ثم انه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته ونظر الى ماية والى سيرين نظرة عطف وطلب اليهما ان تهونا عليهما قائلا: ان له لمرضعا فى الجنة. ثم إن أم بردة غسلته (أو غسله الفضل بن عباس فى رواية أخرى) وحمل من بيتها على سرير صغير وشيعه النبى وعمه العباس وطائفة من المسلمين إلى البقيع حيث دفن بعد أن صلى النبى عليه. فلما تم دفنه أمر محمد بسد القبر ثم سوى عليه بيده ورش عليه الماء وأعلم عليه بعلامة وقال: إنها لاتضر ولاتنفع ولكنها تقر عين الحى. وإن العبد اذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه.

ووافق موت ابراهيم كسوف الشمس فرأى المسلمون فى ذلك معجزة، وقالوا انها انكسفت لموته. وسمعهم النبى. أترى فرط حبه لابراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتمنى بسماع مثل هذه الكلمة أو يسكت على الاقل عنها أو يعذر الناس اذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة. كلا. فمثل هذا الموقف ان لاق بالذين يستغلون فى الناس جهالتهم، أو لاق بالذين يخرجهم الحزن عن رشادهم، فهو لايليق بالنزيه الحكيم، مابالك بالرسول العظيم. لذلك نظر محمد إلى الذين ذكروا ان الشمس انكسفت لموت ابراهيم فخطبهم فقال: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاتخسفان لموت أحد ولا لحياته. فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله بالصلاة). أية عظمة أكبر من أن لاينسى الرسول رسالته فى أشد المواقف التى تملأ نفسه بالفجيعة والهول، لقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد موقف الاجلال والاعظام ولم يستطيعوا كتم اعجابهم واكبارهم واعلان عرفانهم بصدق رجل لايرضى فى ادق المواقف الا الصدق والحق

ترى ماذا كان شعور أزواج النبى بفجيعته فى ابراهيم وحزنه الشديد عليه؟

أما هو فتعزى بفضل الله وبمتابعته أداء رسالته وبازدياد الاسلام انتشارا فى هذه الوفود التى كانت ماتفتأ تتوارد اليه من كل صوب حتى لقد دعيت هذه السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود. وهذه الوفود وحج ابى بكر بالناس وماتلا ذلك هو مما نفصل فى ملحق السياسة المقبل.

محمد حسين هيكل

فى الاجرام السموية

هل بالشمس أحياء؟

دعاوى تقلب الحقائق المقررة رأسا على عقب

يحلو للعلماء احيانا ان يفاجئوا العالم بكل مدهش غريب ويالهم كثيرا ان يخرجوا على الناس الفينة بعد الفينة بماينقض الحقائق المقررة او يقلب المبادىء الثابتة رأسا على عقب. فمثلا من المفهوم حتى اليوم ان الشمس جرم ابيض شفاف من فعل التهابه واشتعاله تماما. ولكن العلامة بيكار يريدنا اليوم ان نفهم انه جرم يكاد يكون معتما وانه بارد غير ملتهب. فهو يقول فى البيان الذى اصدره عن رحلته فى الطبقات السماوية العليا وهى الرحلة التى قام بها مرتين فى منطاد اعده لهذه الغاية، انه رأى الشمس عن ارتفاع عشرة آلاف متر ومادية.

ويقول عالم آخر هو العلامة الفلكى جورج لاكو سلكى ان الشمس لاتشع اى حرارة وان الحرارة التى نحسها ناشئة عن تماس الموجات التى تبعثها الشمس بالارض والاجسام الاخرى وصادرة عنها وهكذا لاتأتى الحرارة من الشمس رأسا وانما تنشأ عن التماس

والاغرب من كل هذا ان العلامة فردريك غليوم هرزفل زعم ان الشمس غير ملتهبة وأنها مسكونة. ويؤيده فى ذلك العلامة الفلكى الكبير دومنيكو فرانسوا اراجو الذى قرر فى غير تردد ان الشمس مسكونة بقوم يشبهون فى كثير من النواحى سكان الكرة الارضية

وقد سبق هذين العالمين العلامة اليوت من اقطاب القرن الثامن عشر فى القول بأن الشمس مسكونة باحياء كالبشريين

ولكن بقى ان نعرف مبلغ الصدق فى هذه الاقوال. ومشكلة المشاكل ان يستوثق المرء منها. اذ كيف يستطيع المرء ان ينقض هذه الدعاوى أو يؤيدها. ومن لنا بأن لايقوم غدا عالم كالاستاذ بيكار يرتفع الى عشرين الف مترا والى ثلاثين الفا ثم يقول فى الشمس قولا جديدا. ويومذاك يكون القول الجديد كلمة العلم كما ان ماتقرر الآن هنا هو اليوم كلمة العلم.

مما وقف عليه فى مختلف بلاد الريف، فكان يفيض عطفاً على أهله وتفنياً بجماله وإشفاقا على بؤس بنيه وأملا فى أن ترتفع بهم الاقدار الى حظ من الادراك لما حولهم من حسن نادر ومن بهاء وروعة • كنت اسائل نفسى: لم لا يشتغل صاحب هذا الصوت الساحر والبيان العذب بالمحاماة ولم لا يكون خطيباً ولم لا يقول الشعر • وتكررت زياراته وتوثقت الصداقة بينه وبين زوجى فأذن لى بمقابلته • اية رجولة تفيض عنه • رجولة فيها طموح وفيها فيض دائم التجدد • رجولة انسانية مضيئة تدرك من أسرار الحياة مالا يدركه إلا الانسان المهذب • تدرك جمال الوجود وما فيه من فن تستخلصه الاجيال الانسانية وتصوره فتزيد الحياة جمالا بل تخلق الجمال فيها خلقا • وتحدث الى زوجى عن الموسيقى فاذا هو يفهم من دقائقها حظا غير قليل • وجاء معه ببعض كتب فى الادب اطلعت عليها فتحركت نفسى الاولى التى خبت وخمدت تحت سجف الانانية الخامدة البارد فقالت اعداني بها زوجى • هناك تفتحت امامى فى الحياة فرجة من امل • لو استطعت ان اصل بولدى ليكون على مثال هذا القاضى لكانت لى به فى الحياة سعادة تنقذنى مما صبوت اليه من الامعان فى التسلى بأسباب الرياضة والمتاع التافهة السخيفة التى تحيط بنا فى القاهرة وتردنى الى حسن المتاع بأسمى ما فى الحياة من صور الحياة •

« وأفضيت يوما بذات نفسى الى زوجى عله يشاركنى فى رجائى ويعاونى على تحقيقه • لكنه لم يلبث ان سمع ما اقول حتى حملق بى وحتى امتقع لونه، ثم عدل عن الموضوع الى حديث آخر انصرف بعد كلمات قليلة منه. ماذا ؟ اى شىء دار بخاطره. ولم احتج الى كبير عناء لافهم . ولم يكتم هو ما فى نفسه طويلا. فقد رأيت زيارات جارنا بدأ يتباعد ما بينها ورأيت زوجى يعمل على زيادة تباعدها بعدم ردها • وسألته يوما وقد انقضت على آخر هذه الزيارات ايام كثيرة ان يرد الى القاضى كتابا كان قد تركه كى اقرأه فلم يتمالك زوجى ان انفجر قائلا :

— وهل يعنيك كثيرا ان يصله هذا الكتاب سريعا • ام تريدين بذلك ان ارد له زيارته كى افتح له بذلك باب زيارته ايانا •

وصمت. وامتقع لونى حين لفظت شفتا زوجى هذه الكلمات بصوت متهدج . ولم تك إلا برهة حتى انصرف مخافة أن يفيض عنه ما هو شر منها. وخلوت الى نفسى أفكر : أى وحى مضىء هبط على زوجى • نعم. أنا احب هذا الرجل. احب جارنا القاضى. فهو قريب منى بمقدار بعد زوجى عنى . ولكن أى شىء فى هذا وأنا زوج وفية كما تريد الزوجية أن أكون! ماذا على زوجى اذا أحب قلبى وجلا غيره مادام جسمى فى ملكه، ومادمت اساير ه فى الحياة جنباً الى جنب، وان تناكر قلبى وقلبه وبعد ما بين فؤادى وفؤاده ؟ اماذا يغضبه أو يثير أنانيته لتعبت الغيرة به كل هذا العبث ؟ نعم . أنا احب هذا القاضى وكنت أتمنى أن اكون زوجا له لا لهذا الرجل الاجنبى عنى وان خلط عقد الزواج بين جسمه وجسمى ، وان كان بيننا هذا الولد الذى أحب من اعماق قلبى ويحب هو من اعماق أنانيته .

وارتسمت صورة جارنا أمامى فشار جسمى كله . ومرت الايام والبعد يزداد بينى وبين زوجى وان لم تتغير معاملتى إياه ولا معاملته إياى . وخرجت يوما لاشترى من أحد الحوانيت بعض حاجتى فاذا جارنا هو الآخر بالحانوت يشترى بعض حاجته . وما وقعت عينى عليه حتى اهتز كل جسمى وخلتنى سأقع من طولى. لكنى تمالكت نفسى وأهديته التحية فتقدم الى ومد يده وسلم على. ولما آن أن اخرج عرض على عربته توصلنى الى حيث أشاء . فترددت برهة ثم رأيتنى بالرغم منى أدعوه ليصحبنى. الى أين ! لا أدرى . ولكن الانانية التى أنماها زوجى عندى أرخت العنان لعاطفتى فجعلتها تغلب وفائى من غير أن يزعجنى لذلك ألم أو يلذعنى وخز الضمير . ومن يومئذ ترعرع بنعمة الحب الصادق وجودى وتضاعف ضياء الحياة أمام نظرى وصرت اسلس قياداً لزوجى وشعرت فى نفسى بشىء من الاشفاق عليه لم اكن أشعر به من قبل .

ونقل جارنا بعد سنة من القاهرة فأهدانى قبيل سفره صورته. ورأى زوجى هذه الصورة يوما فكاد يثور ثائره لولا ما ظهر على وجهى من غضب مفترس ارانيه مستعدة ان أنشب أظفارى فيه اذا هو حاول ان يمزقها أو يعبث بها أى عبث . واقسمت لأضعنها فى اطار ولاجعلنها فى غرفة خلوتى. هنالك بدا له أن يأخذنى باللين لعلى أتوب الى صوابى . وأدى به الى ذلك أنى كنت حينئذ فى فترة حمل فكنت مضطربة الاعصاب وكان يخاف على الاجهاض ان هو اخذنى بالعنف . ومن يومئذ طفت أنانيتى على رقته وعلى ملاطفته إياى وان بقى جسمى فى ملكه بمقدار ما بقى روحى جاهلا روحه

«وأنجبت ثلاثة أبناء غير ابنى الاول . وانقضت سنون وكبر الاولاد وذهبوا الى المدرسة وعلاقتى بصاحبى القاضى لم تنقطع

الشرقيين يعتقدون بهذا الرأى ايضا . وليس هذا إلا ذريعة للعاثرين الوانين الذين لا يودون العمل والسعى ويلقون اللوم الى فكرة مجردة الشخصية لكى ينفوا عن انفسهم عبء المسئولية الثقيلة .

لا أتردد ان اقول مع شعور مسئوليتى التامة أن لا لوم على الاسلام فى حالة الشرق الراهنة . أما اللوم فهو على المسلمين فى الشرق فقط .

واذا اجترأت ان أؤاخذ اخواننا المسلمين بهذا الادعاء لا اقف عن المباشرة لمساعدتهم فى طريق الرقى والتطور. والتبشير فى الشرق تذرع بحيلة اذاعة الحضارة الاوربية مع إذاعة الدين المسيحى لاعتقاد القائمين به ان هذه الوسيلة تفضى الى نتائج حسنة ، وان كان هذا العمل فى البداية من صميم القلب والاخلاص ولا يشينه غرض من الاغراض الرديئة . أما مع مرور الزمان تغلبت المقاصد السياسية على الاحساسات الشريفة وبذلت المساعدة الاخوية الغير الانانية الى غرض الاستملاك الاقتصادى والسياسى . ويحق للشرق وللشرقيين أن يتنبهوا وينهضوا لتعرف مصالحهم ويقبضوا حظهم بناصيته أنفسهم ولا يتركوا أمور التهذيب لأخلاقهم وأدمغتهم لغيرهم سواء كان هذا التهذيب من تلقاء شعور شريفة مجردة عن الاغراض أو لم يكن. ينبغى أن يثوروا بحمية الى تعلم كل الوسائل المفضية الى النهضة الحديثة ونشرها فى بلادهم مباشرة بلا اهمال مدنيتهم النجيبة الشريفة ويحفظوا آثارهم ويحترموا تقاليدهم العريقة . ينبغى أن يحافظوا على استعمالها فى حياتهم الشخصية ، فى تأثيث بيوتهم على الفن الشرق وارتدائهم الى حد ممكن زى الشرق ، وأن يتركوا جانبا كل ما أخذوه بتقليد أعمى من الحضارة الغربية وأن يواظبوا خاصة على دينهم وخلقهم المأثورين . ولو فعلوا كذا واجتنبوا عن تقليد كل ما رأوا أو قرأوا منه فى البلاد الاجنبية واتبعوا مثال أجدادهم الشريفة الذين جاهدوا فى سبيل الموافقة لمقتضيات الزمان لأخفق سعى التبشير الردىء مع كل نفوذه وتأثيره فى قلوب الناس وأجسادهم

ولفظ آخر ! من الامور المعروفة ان فى اوربا والولايات المتحدة دفع مال كثير من النصارى الدينيين لمصلحة التبشير فى الشرق . ولا يتردد أحد أن يضحى ماديا وأدبيا لمساعدة المبشرين لبناء مستشفيات أو مكاتب أو معاهد العلم وترجمة الكتاب المقدس من قبل الجماعة « بايبل سوسايتى » الى لغات الارض كلها ونشره وبيعه بثمن أبخس . ولا ينكر ان هذا العمل وجهد التبشير فى جهات تعليمية ممدوح جدا وينبغى ان يثير المسلمين الى الاقتداء بهم بغير ضغينة وغضب ، ينبغى ان المسلمين يساعدوا أنفسهم وإخوانهم فى تشديد قوتهم المعنوية والأخلاق الصفية والاعتداد بأنفسهم . ينبغى أن يساعدوا المسلمين اخوانهم فى تعميق ديانتهم فى بلادهم الاصلية وفى البلاد التى كان الاسلام قد نشر فيها أثناء الازمنة القديمة وأضاع قوته وتقهقرت حكوماته منها ، وما بقى فيها الا آثار قلائل تمدح مجد الماضى ، وما بقى فيها إلا تذكار فى الكتب وقلوب القليلين الذين يتحمسون لثمار العقل والروح ويتتبعون الحرائة فيها والبحث عنها . ومن هذه الممالك المومى اليها مملكة المجرية التى تفتخر بوقوع مشهد ولى مسلم فى ترابها الذى توفى ودفن فى أرضها . هذا الولى (كل بابا) يعنى (اب الورد) المشهور توارى رفاته أرض العاصمة بودابست وقد كان مكان الزيارة للمعتصمين بالدين الاسلامى منذ عصور طويلة . وتزينت حاضرتنا الغراء بحمامات بهيجة من العهد الاسلامى الذى يحدث عن مجد البناء الاسلامى وحضارة الطهارة التى تقاس بها درجة التطور بين الامم المتحضرة . ومع ما سبق للحضارة الاسلامية فى مملكتنا لا يعنون بها اخواننا المسلمين لاماديا ولا أدبيا وغفلوا عن مساعدة المسلمين المجريين الذين وان يكونوا قليلى العدد يحافظون على مذهبهم ويعدون انفسهم من المسلمين مع فقرهم المدقع الذى هم فيه . وما يزيد الطين بلة ليس للمسلمين المجريين كتاب يفقهون منه تعليم دينهم وتقوى من قراءته روحهم . والله ما ترجم القرآن الكريم الى اللغة المجرية إلا قبل مائة سنة من مبشر نصرانى. ولا يقال لهذه الترجمة إلا انها تحريف مىء وتجديف قبيح . لو فتروا المسلمون المجريون فى حماسة دينهم ووقعوا عرضة لتهلكة فقد اعتقادهم لكان اللوم ليس عليهم فقط بل لثقل اللوم على المسلمين الساكنين فى البلاد الشرقية تحت حكومات وطنية اسلامية لأنهم أهملوا التبشير الاسلامى وغفلوا عنه. ورأيى المتواضع ورجائى بكل ذل من المسلمين المصريين وغيرهم أن يقتدوا بالمسيحيين فى تعليم الدين الاسلامى والتبشير به واشاعة عقائده وبث تراجم القرآن الكريم وتفسيره فى اللغات التى لم يترجم اليها بعد وأن لا يوكلوا هذه المهمة ولا يتركوها للمستشرقين وحدهم الذين هم فى

حالة غريبة لأنهم اشتدت محبتهم واكرامهم لدين وحضارة الاسلام بتبحرهم فى روح وعلم الاسلام وعلى التدريج أخذوا يعززونه وأصحابه بينا هم لا ينتسبون اليه بجنس. وما أعجب أن يكون المستشرقون أو قل بعضهم اكثر خدمة للاسلام من بعض أبناء الشرق المغرمين بنتائج عصرنا الآلى والذين يميلون الى الاستهانة بالاعتقادات العريقة المعنوية مدفوعين بحبهم الى سطحيات المادية الاوربية

وان لاقى خطابى المتواضع بعض العناية من القراء فى بلادكم ياسيدى المحترم وعلى إشارة انعطاف فى أمور المسلمين المجربين وفى ترجمة القرآن الكريم الى لغتنا وفقت فى جهودى لتقوية الوثاق بيننا وبين المسلمين الشرقيين ولكفى هذا أجراً. تفضلوا بقبول فائق احترامى

دكتور يوليوس جرمانوس
مدرس فى جامعة بودابست

قصص اجتماعية

ونماذج من ادب الغرب

لطائفه من اعلام الادب الفرنسى

بورجيه — اناتول فرانس — تريبه — كو
موباسان — دى بانفيل — مارسل بريفو.

مترجمة بقلم

محمد عبد الله عنان

ومقرونة بتراجم تحليلية وافية لهؤلاء الكتاب

فى ثلاثمائة صفحة طبعة ممتازة

يطلب من مكتبة النهضة بشارع المدابغ
امام جريدة الاهرام وباقى المكاتب الشهيرة
وثمنه ١٠ قروش عدا البريد

الفرعونية والعربية

حاضر لا ماضى له ، لا مستقبل له

للدكتور هيكل بك

بينما كنت بلبنان فى شهر يوليو الماضى قصد الى زميل صحفى يتحدث الى فى شؤون وفى اخرى، وكان من بين ماسألنى عنه هذه الفرعونية التى أدعو الى بعثها فى الادب وفى غير الادب.

وقد كان يبدو عليه ، رغم عظيم رقته وتلطفه فى السؤال، شىء من الانكار لهذه الدعوة لما فيها من تأييد مذهب القومية قاصراً على مصر ، ومن شبهة الانكار للفكرة العربية التى تشغل أذهان رجال الشرق العربى وقلوبهم جميعا ، ولانها فيما يقول لا فائدة تجنى بعد إذ غزا الاسلام بلاد هذا الشرق العربى فمحى فيها على كل أثر قبله وأحل بها حضارة جديدة لا صلة بينها وبين ما سبقها من الحضارات.

ولقد كنت أصمم لزميلى وهو يحدثنى معترضا على فكرتى فى كثير من الرفق والاشفاق على مانسميه الحقائق. وبينما كنت أسمع كنت أذكر ماثار فى وجه هذه الفكرة بالذات من اعتراضات عنيفة فى بلاد الشرق العربى المختلفة بل فى مصر نفسها، وما رميت به هذه الفكرة من مقاصد مستترة لم تجل قط بخاطرى يوم دعوت اليها. فقد اتهمت بأنها ترمى الى فصل مصر عن الكتلة العربية حيناً، والى فرض زعامة مصر على الكتلة العربية حيناً آخر ، والى محاربة الفكرة الاسلامية والحضارة الاسلامية تارات. وكنت أذكر كذلك ان العالم الفيلسوف الاستاذ يهودا تحدث الى فى شأن هذه الفكرة فى سنة ١٩٢٩ وسألنى عما أقصد اليه منها حاصباً انى اريد أن تحيى مصر فى هذا القرن العشرين المسيحى حياة مصر منذ أكثر من خمسين قرنا مضت، تعيش كما كان الفراعنة يعيشون ، وتؤمن بما كان الفراعنة يؤمنون ، وتفكر كما كان الفراعنة يفكرون ، متهما ذلك بمحاولة المستحيل لأن التاريخ لا يمكن أن يعود القهقرى، ولأن الناس بعد إذ تذوقوا الحرية لاقبل لأحد بارغامهم أن يقوموا ببناء اهرام كما اكره الفراعنة رعاياهم على بناء اهرامهم ، وبعد أن تذوقوا الحرية الفكرية والحضارة العلمية لن يستطيع أحد ان يقيد أفكارهم بالقيود الميتولوجية أو يردهم الى حضارة الخضوع والاذعان.

وتحدثت الى زميلى الصحفى بمجمل فكرتى على مايسمح به وقت

وتوجهت بقلبى لله أشكو اليه غدر القدر.

«وزفقت الى زوجى فلم تك الا أياحتى رأيته يبدى لى من صنوف المودة أو يغدق على من تفيس الحلى والثياب ماجعلنى كلما أقبل على أبى أقبل يده قبلة شكر واعتراف بسابغ جميله. ومضت الاشهر وبدأت الحلى والثياب تكثر وبدأت امل هذا النوع من مظاهر الحب وأطمع من زوجى فى شىء آخر. أطمع منه فى جمال نفسه يغمرنى فيزيد فى حياتى ، وأطمع منه فى أن يبادلنى النظرة للوجود ومافيه من حسن واتساق فنى ، وأطمع منه فيه هو، لا فى هداياه ولا فى ماله. أطمع فيه جديدا كل يوم ، مختلفا كل يوم جماله عن اليوم الذى قبله ، مبدعا فى وجوده ووجودى مايزيد الحياة أمامنا فسحة وانبساطا ورقة وجمالا. ولم أقف بمطمعى هذا عند الرجاء. بل حاولت أن أبعث الى نفسه من وجودى ومن حياتى ومن قلبى ومن عاطفتى ومن هواى ومن عقلى مايحركه الى ماأحب. وكأنما شعر المسكين بما تصبو اليه نفسى تحاول. ولكن هيهات. فما كنا نكاد نبدأ تبادل عاطفة حتى ينقلب فى لحظة حيوانا. فاذا أجبته الى حيوانيته رأيته بعدها هامدا باردا مطفىء النظرة لاتلمع عيناه بمعنى ولا يحس لى وجودا. وما كنا نكاد نتبادل حديثا غير حديث مزاوعه وأمواله حتى يتثاءب ويعجز عن كتم ملاله. واذا رآنى يوما أحجب بجمال فنى فى صورة أتأمل، أو فى كتاب أقرأ، أو فى منظر من مناظر الطبيعة يوحى الى بجمال الحياة الدائم الجدة، وقف مبهوتا وشعرت أنا به بعيدا بعيدا وكأن بينى وبينه عوالم وعوالم. فاذا تعلق الامر بشخصه أو بأمواله او بشىء يهواه لمعت حدقتاه وتحركت فى نفسه اثرة قوية لاتعرف حدودا

«بدا الضجر من انانيته وضعة نفسه يدس الى نفسى سمومه. ولست ادرى ماكان يصل بى الضجر لولا ما شعرت به من تحرك الامومة فى احشائى. هنالك اذكرت قول ابى عن واجب المراة وتناسيت ماكنت اطمع فيه من زوجى ، وتناسيت زوجى هو الآخر ، وانصرفت الى احلامى بهذه الامومة التى كنت ازداد بها كل يوم شعورا وازداد بسببها نسيانا لما عداها. وانجبت حساما وجعلت كل همى العناية به. واغتبط زوجى بولده وجعل يغدق عليه بمثل ماكان يغدق على فتبتهج نفسى لهذه الملابس الطفلة ولهذه الالاعيب يعبث حسام بها ويحببها حتى انا إياه. وبدا الولد يخطو ويتكلم وبدأت ارجو ان ينال ابوه بالعطف الابوى الصادق وان يفيض عليه من ذلك الحب نورا يشب الولد فى ارجاء ضيائه سعيدا بالحياة محبا اياها حبا ذكيا قوى الادراك سريعه ليكون لى من بعد الرجل الذى ارجو. لكن خيبة رجائى فيما طمعت فيه لنفسى لم تكن دون خيبة هذا الرجاء فيما طمعت فيه لطفلى. لقد كان ابوه يحبه حبا شديدا. لكنه كان حبا حيوانيا هو حب انفطرة التى تدفع الدجاجة لتحنو على فراخها وتدافع عنهم. وكان حبا انانيا لاشىء من الذكاء فيه. كان يحبه كما يحب عزبته وحصانه واوتوموبيله. وليت انانيته فى حب ولده اوفيما يبدى من ميل الى كانت انانية مستنيرة تعرف كيف توحى الى ماتعتقد انه فى ملكها بشىء من معنى الحياة الانسانية يسمو به الى ذوق جمال الحياة والى السمو فى ادراكها. بل كانت على العكس من ذلك انانية ضيقة الافق كانانية الطفل وكانانية الدجاجة فيها كثير من الحمقة عند الغضب والسخط ومن العطف عند الرضى والانبساط

«دفعت احوال زوجى هذه الى نفسى شيئا من الثورة. لكنى الفيته يزداكتافه لثورتى ويحاول تهدئتها بمثل مايحاول تهدأة طفله اذا صاح: بثوب لى أو لعبة لطفلى أو نزهة خلوية يخرج وإيانا اليها علها تهدىء اعصابى على حد تعبيره. والايام والشهور تمضى ولا أجد وسيلة اتغلب بها على طبع زوجى. هنالك بدأت ثورتى تسكن بالرغم منى ورأيتنى اميل الى ناحية من الانانية انا الآخرى، هى ناحية التسلى عن هذه الثورة بما حولى مما اطلق الناس عليه انه أسباب الرياضة والمتاع. فأكثرت من غشيان دور السينما والمسارح واستكثرت من الصديقات اباد طن الزيارات ونزلت بآمالى ومثلى العليا الى مستوى البيئة القاهرية وصدفت عما كنت اصبو اليه من جمال فى الحياة لاوجود له فيما حولى ورضيت كذلك بالحاضر دون ان يغير ذلك من نظرتى الى زوجى ومن شعورى بأن كل واحد منا بعيد عن صاحبه كل البعد وان تسايرنا لنقطع طريق الحياة جنبا الى جنب. وما جوار الاجسام اذا تباعدت الارواح ولم تهتز القلوب بنبأة من تعاطف أو تفاهم.

«فى ذلك الحين سكن فى أحد المنازل المجاورة لنا قاضى كان بالارياف ونقل منها الى القاهرة. ولم يمض على مجاورته إيانا طويل زمن حتى ربط التعارف بينه وبين زوجى وحتى دعاه زوجى لتناول القهوة عندنا. وأتيح لى غير مرة ان استمع الى حديثه وأن أراه. يأله من حديث كانت تفيض نبراته بالحرارة وكانت تموج عباراته بصور الحياة. كان يقص على زوجى كثيرا

« — وهل يعجبك كثيرا أن تلعب دور الخائن لأصدقائه فى أزواجهم ؟!

« ووقف هو بدوره وحاول أن يحملق فى . كلا ! ليس هذا قاضيا بل ليس هذا رجلا بل ليس هذا مخلوقا انسانيا . هذا وغد دنىء أبى على امرأة شريفة أضلتها الأقدار فأحبته حين لم تكن تستطيع أكثر من أن تحبه ان تكون زوجه وأن تحمل اسمه. وهذا الفن الذى يعرف، وهذه الموسيقى التى لها يطرب، وهذه الثقافة التى بها يزدان، ليست إلا حبالات لغرض حيوانى خسيس، وليست إلا قشورا تخفى أنانية أحط صنفاً من أنانية زوجى الذى خدع .

« أمام ثورتى الجامحة بدأ يتوسل إلى لأجلس كما نتفاهم . لكن قلبى كان قد تحطم من ساعة دخلت الوكر ورأيت الام يريد أن يستدرجنى ، وتحطم اضعاف ذلك حين أعلن الى فى نذالة انه لا يرضانى له زوجا . لا يرضانى أنا التى استهنت بأقدس الواجبات واستهنت بنظرات الناس وبأحاديثهم وبما كانت تسلقنى ألسنتهم فى سبيل حبى إياه حباً صادقا . أنا التى وهبته نفسى وذكائى وسعادتى وقلبى ووهبته حياتى لأنى أحببته . وحدقت به فاذانى أراه وكأنه مسخ خلقاً آخر . مسخ قردا أو خنزيرا أو مادون ذلك من أخس الحيوانات وأدناها . وحاول غير مرة ان يتكلم . لكننى فى كل مرة كنت اهجم عليه بالاوصاف التى كنت أراها مرتسمة على وجهه فينكمش على عقبيه متراجعا هزيما . وأخيرا انتهز فترة كنت لا أتمالك فيها ان أتحدث لشدة انفعالى وقال :

« — ألا ينهض لى عذرا أن لا أقدم على التزوج من أم ذات اربعة أبناء

« واولداه !! ياللوغد !! أم ذات اربعة ابناء ! لم أتمالك نفسى لدى سماع هاته الكلمة وصحت به فى صوت ارتعد له : وانت الذى تقولها . ألا تعرف اذ لك اكثر من ان ؟ ألم تقرأ تلك الكلمة التى تركها البائس المسكين زوجى ؟ أقسم لو انك ترامیت على أقدامى اليوم لأكون لك زوجا لرفستك كما ارفس اخس الحيوانات . وكيف ارضى أن تكون مثالا لابنائى ينسجون نسجك فيكونون مثلك غدرا وخيانة ونذالة .

« أجهدتنى هذه الثورة فشعرت برأسى يدور وخشيت أن يصيبنى الاغماء. ومخلوق هذه نفسه قدير أثناء إغمائى ان يرتكب أخس الجرائم . لذلك تمالكت نفسى وارتميت الى مقعد وأشرت اليه بيدى قائلة : ابتعد عنى ودعنى وحدى . أنا بحاجة الى لحظة سكون لاسبيل اليها وأنت أمامى . انصرف فما لى بك حاجة .

قلت هذه الكلمات فى لهجة أمر وحزم لم يستطع معهما دون ان يخرج وان يتركنى وان بقى فى غرفة قريبة . وقت مجهودة حتى بلغت الباب فأوقفت رقاجه ثم عدت الى مقعدى . وما كدت اجلس حتى رأيتنى انهملت دموعى وانخرطت فى بكاء خشيت أن يسمع الشذل نشيجى به فيتشفى . وانتفضت برهة أعادت الى شيئا من هدوئى فأجلت بصرى فى جوانب الغرفة حولى . لقد كان كل شىء فى هذه الغرفة يحدثنى حديث الحب فى أقدس صوره حتى آخر مرة احتوتنى . فالها الساعة وكل شىء فيها بغيض كريه يحدثنى عن جرائم وجرائم توالت سنين طويلة وأنا بها مغتبطة وعلى النهل من وردها الاثيم حريصة . وأية جرائم ؟! أحط الجرائم وأدناها! اهدار طهارة العفة على مذبح الشهوة البهيمية الدنيئة ، وخيانة قدس الزوجية فى احضان دنسة قذرة . أينا أكبر جريمة ؟ هذا الرجل الذى طردت من حضرتى، أم أنا ؟ هذا الوغد الذى لا أوانى الآن دونه سفالة وحطة . ألا ان لهذا الرجل عذره أن لا يتزوجنى. وكيف يفعل وقد امتهن كلانا حرمة الزواج ، وامتهنها لا فى زلة لحظة ، ولكن فى جرائم سنين . كلا ! ليس هو أكبر منى جرما ولا أكثر منى انحطاطا .

« كم أقمت كذلك؟! خمس دقائق ! عشر ! ساعة كاملة ! لا أدرى . ثم قمت فتقدمت الى الباب ففتحته معتزمة ان أنحدر مسرعة إلى الخارج . لكنى وجدته أمامى كأنه ينتظرنى . فلما رآنى حدق بوجهى وقال :

« — أتبكين !!

« فأشرت اليه بيدى وقلت : وداعا . ثم تركته ونزلت فناديت عربة حملتنى إلى بيتى .

« دخلت إلى البيت والشمس موشكة أن تنحدر إلى مغيبها فاذا أبنائى يلقوننى ومايزال فى نفس أكبرهم من الحزن لفقد أبيه ما أذهب عنه شيئا من مرح الطفولة المتقدمة الى الصبا. ونظرت اليهم جميعا فازددت هما على همى . أيهم ابن لمن يعرف الناس أنه أباه ؟ وأيهم ابن الجريمة التى اشتركت مع ذلك الوغد فى ارتكابها ؟ عرتنى هزة تناولت كل جسمى من مفرق إلى اخمص وأحسست كأن الحمى تلبسنى فجلست على مقعد وأخبرتهم انى متعبة وانى لذلك غير قادرة على تناول طعام العشاء معهم. وذهبت

ماتكاد تحملنى رجلاى من فرط الاعياء الى غرفة زينتى القيت بها ملابسى . والحمى أثناء ذلك تزداد وأشعر بدوار يكاد يغشى على معه . وجاءت الخادم تعاونى على خلع ملابسى وتسألنى مابى. وماذا كان بى . حمى ! دوار ! اضطراب فى الاعصاب ! ربما كان بى هذا كله . وبينا البس قميص نومى ارتميت على صدر الخادم مغشيا على ولم أفق حتى كنت ممددة فى سريرى .

« تذكر ياصاح ذلك المرض الذى أصابنى وألزمنى الفراش أسابيع عدة ، والذى كنت ترعانى أثناءه بزيارتك وجميل عطفك . هو هذا الذى أعقب مارويت لك . وقضيت الايام الطوال ما يكاد يعرف النوم الى جفنى سبيلا لانى كنت كلما أغمضت عينى ارتسمت أمام بصيرتى أشباح مزعجة لجرائم مروعة تقع كلها بين جدران ذلك الوكر الذى قضيت فيه لبانات حبى سنوات متعاقبة ، والذى أصبح من بعد مقابلة الوغد الاخيرة فيه مأوى أفاعى وعقارب تنفث سمومها قاتلة . لقد كانت هذه الافاعى والعقارب تنفث سمومها منذ اليوم الاول الذى عرفت فيه هذا الوكر . لكنى كنت فى ضلال العماية فلم أرها ، بل حسبتها بدائم فن منثورة فى المكان وحسبت فحيحها أناشيد الحب ونجوى الغرام . ويدخل الحين بعد الحين أحد أبنائى يرمقنى من عيونه البريئة الطاهرة بعين العطف فتتمدد نظرته فى صدرى خنجرا اذ تجعلنى أسأل نفسى أى الرجلين أباه ، وتجعل الطعنة أشد وقعاً اذا رأيته ثمرة غرام غير مشروع . كانت هذه الآلام النفسية أشد قسوة من كل آلام المرض . وكنت أحسبها تنتهى بعماوتة المرض على البلوغ بى الى خاتمة ما كان أشهاها الى نفسى: الى الموت. لكننى أحسست بنفسى أتماثل الى الشفاء فأيقنت ان الله يريد ان أذوق من عذاب التعمير ما أكثر به عن ثورتى عليه وخيانتى لأقدس الروابط . ابتهلت وأطلت الابتهال . دعوت الله أن يغفر لامرأة ضعيفة خاطئة كى تقوم على تربية أبنائها بكل ماوهبها القدر من ذكاء وحسن رعاية . لكن هؤلاء الأبناء أنفسهم كانوا بعض العذاب الذى اعد الله لى . فرجوت أن أنقطع الى خلوة أديم فيها العبادة اكفر بها عن ذنبى . لكنى سمعت من أعماق نفسى صوتا يناديني : ان ذنبك لا كفارة عنه الى ان يفنى الالم هذا الجسم الذى استعذب حلاوة القبلات الآثمة حين نسيت أنت ان لله عينا لا تنام . وفيما أنا فى هذا العذاب أقامى آهواله اتصل بى ما يقول الناس عنى فابتسمت إشفاقا . أى شىء من كل مايستطيعون أن يقولوا يوارى برهة مما أعانى . وأسأل نفسى: أيشعر الوغد بشىء مما أشعر به ؟ أم هو غفور بما جنى مغتبط بأن يلبس وسامه ويجلس ليقضى بين الناس زاعما أنه يقيم العدل على الأرض وقد كان معى أفحش الظالمين ؟! ولكن مالى انا وشعوره . انه رجل. وأنانيته لا تعرف مثل عذابى لانه لا يرى آثار جريمته تلاحقه أينما ذهب كما تلاحقنى . ثم أنظر اليها بعطف ومحبة واعزاز . لا يرى هؤلاء الابناء الذين لا يقول احدانهم أبناؤه ولكن الناس جميعاً يعرفون انهم أبنائى

« وبرئت من سقمى وعادت الى قوتى فحاولت ان أشغل نفسى لعل ذلك يقوم حجابا بينى وبين هذا الماضى الذى يجثم على صدرى. وبرغم محاولاتى لم أنجح ولم يسكت صوت ضميرى. وكان ما أتظاهر به أمام الناس من سكينة أرد بها عنى نظرات الشامتين أشد الحاحا فى تعذيبى من كل شماتة بى . وما أزال حتى اليوم أفكر . وما أزال أضرع الى الله ان يخفف عنى العذاب بعد ان قضيت الشهور تلو الشهور اكفر عن خطيئتى ثم أراها بعد ذلك كله ماثلة أمامى فى صورة هذه الافاعى والعقارب التى تملأ الوكر وتنفث سمومها فيه وتملأ بقحيحها جوه»

سكتت زهيرة من هذا الحديث برهة أمسكت أثرها برأسها ثم قالت أشعر بصداع . ودقت الجرس لخادمها وطلبت اليها كوبة من ماء . فلما خرجت الخادم لتلبى طلبها نظرت الى وقالت :

— ألا ترانى ، وذلك شأنى ، كفارة الحب ؟!

ووضعت فى الماء المسحوق الأبيض الذى أخرجته من حقيبتها ثم اعتذرت بحاجتها الى الراحة فاستأذنتها وجئت اليكم . وها أنا الآن قد قصصت حديثها عليكم

***

أصاخ الاصدقاء لحديث زهيرة وكلهم آذان . فلما فرغ حمزة من قصصه جملنا، وكلنا مأخوذ حزين ، نتبادل العبارات فى غدر القدر وضعف الانسان وباطل كبريائه . وقضينا فى ذلك وقتا غير قليل قص بعضنا أثناءه قصصا وتحدث البعض بأحاديث . وإنا لفى همزنا إذ دق التليفون وسأل المتكلم فيه عن حمزة . وتناول حمزة السماعة وأجاب السائل ثم سمع له وأساريره تنقبض شيئا فشيئا ووجهه يتجهم من الم أضعاف ما رأينا عليه ساعة جاء الينا . فلما أعاد السماعة الى مكانها سألناه ماذا وأى أصرعناه. فترقرقت فى عينه دمعة لم تبد لم تنحدر ثم اجاب :

— انتهى . ماتت كفارة الحب .

ووجم بردة سادنا جميعا أثناءها صمت مجاملة أو صمت وجل من الموت وذكره . وعاد حمزه الى ملك نفسه ثم قال :

— مسكينة هي البائسة التي قضت نحبها بارادتها كفارة لذنوب لم تكن عليها أثقل تبعاتها . لقد كان هذا المسحوق الأبيض الذى وضعته فى الماء معا . وهذه خادمتها تخبرنى انها لم تلبث طويلا بعد ان غادرتها لموعدكم هنا حتى بدأت تتلوى من فرط الألم وترفض مع ذلك استدعاء طبيب بدعوى انه مغص سرعان مايزاولها : ولما لم يبق لها باحتمال الألم طاقة نودى الطبيب من غير علمها . فلما بصرت به داخلا عليها يسألها عن حالها قالت له فى لهجة المنتصر :

— لا فائدة يا سيدى الطبيب . لم يبق بى الى علاج من حاجة . انى أرى الخاتمة تدنو . واذا استغرق مابقى على ان أعاني من ألم سويعة أو بعضها حتى يتم السم الذى تناولت واجبه فهجرة الناس جميعا هى الراحة الكبرى وهي أكبر انتصار لى عليهم وعلى الحياة

وأمسك حمزة طربوشه بيده وأردف :

— والآن أستأذنكم لاداء الواجبات الاخيرة لهذه الضحية التعسة . لقد انتصرت حقا على الناس وعلى الحياة . لكنها لم تنتصر على أبنائها

وغادرنا منصرفا الى واجبه المقدس ونحن نرمقه بعيون ذاهلة ملأها حديث زهيرة وماأعقبه من موتها هاوألما

محمد حسين هيكل

من أطاع القانون عاش بلا خوف

تلسون

***

أقول الحق حسبما أجمر ، لاحسبما أريد . وتزيد جسارتي بتقدمي فى السن

مونتاين

***

من كثر أدبه عظم شرفه وان كان وضيعا . وبعد صيته وان كان خاملا . وساد وان كان غريبا . وكثرت حوائج الناس اليه وان كان فقيرا

بزرجمهر

***

الحق ثقيل . ولذلك كان الذين يرضون بحمله قلائل

المستشرقون والاسلام

جاءنا الخطاب الآتى من الدكتور يوليوس جرمانوس المدرس بجامعة بودابست ننشره من غير إدخال تحوير على لغته ونرجىء إبداء ملاحظتنا على ماورد به الى ظرف آخر

الى صاحب الفضيلة رئيس التحرير للجريدة «السياسة»

سيدى المحترم !

بعد عودتى من الريف رأيت الجريدة الغراء « السياسة» ووجدت فيها مقالا عن تأسيس جماعة الدفاع عن الاسلام وعن الاجتهاد ضد نشاط المبشرين الاجنبيين فى الممالك الاسلامية .

انى أظن ان النهضة فى الممالك الشرقية كلها وبالخاصة فى الشرق الادنى تلقى بعواطف كل من يعتقد بالحقوق الانسانية على ان يتصرفوا الشعوب فى قطرهم كما يشاءون تبعا لقوانين دينهم ومقتضيات أخلاقهم . كنت من محبي الشرق الاسلامى منذ ثلاثين سنة واتبع شئونه باهتمام زائد . وهذا الاعلان عن يقظة المسلمين على خطر تدخل المبشرين فى أمور الشرقيين سرنى لأنى أؤمل انها ستفضى الى حركة حيوية فى حياة الشرقيين الاجتماعية بغير أن تهدد آثار ومعاهد الحضارة التى عمل التبشير لها فى لاعوام الخالية يعنى المكاتب والمطابع والمستشفيات وغيرها .

وان من الغريب ومايؤسف له ان الشرق الذى كان مشعلة الحضارة فى القرون الوسطى تدنى الى دركة ان قضى تدخل أوربا الحديث على معاهده وضئولت حضارته القديمة واقتضت الشئون أن يكون الاجانب هم الذين يدخلون نتائج التفكير الحديث وآلاته المتطورة فى بلاد الشرق كله لسبب اضمحلال قوى الحكومات التى اهملت رعاياها وصارت حالة المهرقيين الآن كثير يرمى الى الرياح . وأنا متيقن جدا ان رقى أوربا وتأخر الشرق فى آثار الحضارة وغناه لم يحصل من تفوق أديان الغرب على أديان الشرق . إلا ان جهد الاوربيين وسعيهم لايعرف الهوادة والليين ويرمون مثابرين الى الهدف الذى جعلوا نصب عيونهم بينما ان الشرقيين يسعون بطفرة أو بطفرات ويتعبون ويلتذون بهذا التعب ولا يهمهم إلا النجاح السطحى من حين الى حين . ادعى بعض الغربيين المتطرفين فى تعصبهم لحضارتهم ان دين الاسلام حال بين النجاح والمؤمنين به . وان دراسة — وان تكن سطحية — فى الدين الاسلامى وتاريخه لتدحض هذا الرأى كليا . ومما يؤسف له ان كثيرين من

وأنانيتى وأنانية زوجى متجاوران يتسايران فى طريق الحياة . وفى هذه السنوات كانت أنانية زوجى تثور مابين حين وحين حتى شكا أمرى يوما الى أبى . لكنى كنت أخضع أنانيته دائما بما يعهد بجسمى أسلس له قياده . أما أبى فلم أزد يوما حين جاء يعنفنى على ان قلت له :

— لقد رفضت الزواج غير مرة . ثم أخترت لى أنت على انك أخبر منى بالحياة . وهذا الاختيار قد زج بى فيما أنا فيه . فليك بقع حظ من التبعة غير قليل

« ولعنى ابى فلم أحفل بلعنته . لقد باغت بى الأنانية حد التبجح ، وقد انتهى زوجى المسكين بالاذعان لحكم القدر . وظل رحمه الله مذعنا حتى اختاره الله الى جواره . وكان يخيل الى طوال هذه السنين أنه انتهى كذلك الى السعادة باذعانه . واقد قمت من ناحيتى بالاذعان لكل مايشبع شهوات حيوانيته . لكنى كشفت لى الاقدار بعد وفاته عن جانب من شعوره جعلنى أذرف الدمع سخينا عليه وان استعصى على أن أوفق بين هذا الجانب وما كان من حرصه على ارضاء كل مافى نفسه من أنانية وضيعة مفترسة . فقد عثرت بين أوراقه على مذكرات قرأت فى احداها مايأتى :

«اليوم قابلت صديقى ... بك ... ناظر المدرسة بمكتبه لادفع مصاريف الأولاد ، وقد أبدى لى اعجابه بنجابة أصغرهم فترقرقت فى عينى عبرة بالرغم منى لم أملك معها ان أقول : انا واثق بأن أكبر الاولاد ابنى . أما الآخرون فلست من بنوتهم لى على ثقة . ورأيت فى عين ... بك نظرة إنكار كأنما يقول لى : «وما يكرهك على ان تمسك عليك زوجك» . وسارعت أنا فأجبت على نظرته بقولى : «ماكان تسريحى زوجى ليخفف من بلائى وشقوتى ، ولكنه كان اعلان الفضيحة والعار لها ولابنائها ولنا أيضا . انك آثرت أن أشقى وحدى على أن أنشر حولى كل هذا الجو من الشقاوة ثم لاأكون بذلك أقل تعسا ولاأقل شقاء .»

« تركت هذه العبارة التى عثرت عليها فى أوراق زوجى بعد وفاته أثرا بالغا جعلتنى أذرف الدمع عليه سخينا . وجاء صاحبي القاضى فى مأتمه يعزينى فأطلعته عليها ثم قلت له : والآن وقد أصبحت حرة لك فما عساك فاعلا ؟! فنظر الى كأنما هو دهش من سؤالى فقلت له : ألا نتزوج متى انقضت عدتى . ان مابيننا من حب لم تعد عليه عادية السنين جدير بان يتوج برابطة الزواج . وكم تمنينا لو كنا ارتبطنا بها قبل أن اتزوج »

«واستمهلنى ليفكر فأثار ذلك دهشتى . لكنى لم أر أن ألح وما يزال فى الوقت متسع . ولم يدر قط بخاطرى أنه منته الى غير مادعوته اليه . فما تبادلنا خلال هذه السنين من عواطف الحب وما عرف من صدق وفائى له لايحمله يختار على أحدا ، وما تغنى به طوال هذه السنين من الاعجاب بى بل من عبادتى كفيل بأن يزيل من نفسه أى أثر للتردد ، ولو كان الدافع للتردد رغبته اطلاقا عن الزواج . واقتنعت أنا بهذه الحجج فخفف ذلك من الحزن الذى يدسه الى نفوسنا موت يقع باعيننا ولو نزل بشخص ضعيفة رابطته بنا . وانى يوما لانظر لمستقبل خير أحلاما اذ دق التلفون وتحدث صاحبي الى يدعونى لأوافيه الى المسكن الذى ألفنا كل سنوات حبنا : فأجبته على الفور

« — كيف الآن تدعونى الى هناك . ولم لاتحضر أنت الى هنا

« — خير أن تكون بمنجاة من الأعين

« — ومم تخاف الآن وقد أصبحت مالكة تقسى الى أن أدخل فى ملكك

« لكنه ألح وبالغ فى الالحاح فلم ار بدا من اجابته الى ماطلب . وذهبت فالفيته قد نثر ما أحب من أنابيب الزهر فى كل أرجاء المكان وهيأه كعادته ليكون قدسا للحب . فلما جلست جاء الى وجثا عند قدمى وبدأ بنثر من شعر الحب ما كان يسكرنى من قبل سماعه . لكننى نظرت اليه فى دهش وقلت له :

« — أحسب هذا الدور قد انتهى وأحسبنا سنصبح زوجين نتبادل حبا من نوع آخر . ولعل سعد الطالع هو الذى هيأ لنا فرصة هذا التغيير ليكون حبنا دائما جديدا .

« — ان هيامى بهذا الحب فى ذلك الوكر يجعلنى لاأرضى به بديلا . فلنكن دائما كما كنا من قبل

« — ولكن لنخدع من ياصديقى وقد مات زوجى

« — زوجى من شئت . لقد فكرت طويلا فآثرت أن استمر فى هذا الدور

« — هذا الدور . ولم لاتتزوجنى أنت ؟ أفكنت هذه السنين كلها تلعب دورا فأنت تخشى اذا تزوجتنى أن يلعبه غيرك على حسابك ؟ !

« أطرق الى الارض إطراقة تبينت فيها هاتين الكلمتين الصغيرتين البشعتين : ولم لا ؟! فصعد الدم الى رأسى وكررت السؤال فلم يزد على اطراقته . ثم شعرت كأنما حاول أن يمس قدمى بأن يخلع حذائى لا أدرى . هنالك انتفضت واقفة وقلت له كرة أخرى :

ريب فى ان كل اتصال بين روحنا اليوم وبين روحنا فى مختلف هذه العصور يضاعف قوتنا وحيويتنا ويسمو بروحنا إلى مقام البقاء والخلود الذى كان لروح أجدادنا .

هاهنا يرد اعتراض زميلى الذى كان يحدثنى واعتراض اخواننا من أهل الشرق العربى الذين ثاروا بالفكرة واعتبروها تأييدا لمذهب القومية مقصورا على مصر ، ووقوفا فى وجه الفكرة العربية ، وانكارا لما يذكرون أن من الاسلام عفى فى البلاد التى غزاها على كل ماقبله . ولو أن الفكرة قصد منها الى شىء من هذا الذى يقولون ، بل لو أنها كانت تؤدى إلى شىء منه ولو لم أقصد أنا اليه ، لكان لاصحاب الاعتراض ولكان للثائرين كل العذر عن ثورتهم وعن اعتراضهم . لكن الامر على النقيض من ذلك تماما . وقليل من الايضاح يكفى فى اعتقادنا ليكسب الفكرة انصاراً من أهل الشرق العربى جميعاً بل يكفى ليدل على ان هذه الفكرة اذا عمت العالم كانت المقدمة المحتومة للوحدة الانسانية ولاقامة السلام فى ربوع العالم ، وكانت القاضية على هذا الأفق الضيق الذى تحصر فيه الحضارة الغربية الحاضرة تفكير ابنائها ، والذى يثير فى العالم العداوة والبغضاء ويقيم بين الامم والشعوب الفتن والحروب ويقدم مابين فترة واخرى الى النيران خير ماأثمرت الحياة من تراث وخير مايتوج الانسانية من رؤوس مليئة بالعلم والفضل والحكمة والخير .

فأنا اذا دعوت الى فكرتى هذه فى مصر ، ودعوت اليها قومى المصريين ، ودعوتهم اليها استجابة للحقيقة التى ذكرت من ان مالا ماضى له ، لاحاضر ولا مستقبل له ، فانا إنما أؤدى واجبا قومياً يجب اداؤه فى البلاد المختلفة بالدعوة الى مثله . وتفكير قليل يقنع بأن تطبيق هذه الفكرة فى بلاد الشرق العربى يؤدى الى نتيجة هى خير النتائج . يؤدى الى ان يصل أهل الشام حاضرهم بماضيهم منذ عهد الفينيقيين ومن قبل عهد الفينيقيين إن استطاعوا ، والى أن يصل اهل العراق حاضرهم بماضيهم الى عهد آشور وبابل والى ماقبل آشور وبابل ان استطاعوا . هذه الحضارات الفرعونية والفينيقية والبابلية تتجاور وتتصل على الزمان اتصالها فى المكان . ولقد اتيح لى أن أرى بمتحف بيروت على صغره تماثيل بينها وبين تماثيلنا الفرعونية شىء من الشبه وشىء من الاختلاف ، وبينها وبين التماثيل اليونانية شىء من الشبه وشىء من الاختلاف .

وما أحسبنى اخطىء اذا قلت ان شيئاً من الشبه وشيئا من الاختلاف يمكن الكشف عنه فيما سوى التماثيل من حياة تلك العهود فى الشام وفى مصر ، كما ان شيئاً من الشبه وشيئا من الخلاف يمكن الكشف كذلك عنه بين حياة مصر والشام وبين حياة العراق فى تلك العهود القديمة . . ومهما يقم بظن بعض ان الغزو الاغريقى أو الغزو الرومانى أو الغزو الاسلامى قد أباد الأجناس التى كانت تقطن مصر والشام والعراق وبلاد العرب وبرقة وتونس وسائر البلاد العربية فانى لا استطيع أن اصدق ان هذه الابادة التى يزعمون كانت كاملة ، ولا أستطيع أن اصدق ان سواد هذه الشعوب لم يبق ولم يتناسل ولم يتصل على الزمن الى عصرنا الحاضر لم يصبه من هذه الغزوات أكثر من لقاح جاء به الغزاة للاجناس الأصيلة التى ظلت بعد ذلك متأثرة بحكم البيئة الطبيعية التى تنشئنا كما نشأت من قبلنا آباءنا وأجدادنا ، والتى تطبع فى قلوبنا من العوائد والعقائد وصور الحضارة ماقد يتلون بألوان مختلفة بحكم الغزو والسلطان والحضارة الغالبة ، ثم تبقى طبيعته مع ذلك أصيلة فى نفوس الأحفاد على نحو ما كانت بالضبط فى نفوس الأجداد . وكفى برهانا على ذلك ان كثيراً من الطقوس الفرعونية قد انتقلت الى مصر المسيحية فأصبحت طقوساً مسيحية ثم انتقلت الى مصر الاسلامية فأصبحت طقوسا اسلامية وهى على تتابع القرون هى لم تتغير . وأحسبك واجدا من ذلك مثاله فى الشام والعراق وتونس وسائر البلاد العربية . واحسبك واجدا بين هذه الطقوس من صور الشبه ومن صور الاختلاف ألوانا كالتى أشرنا اليها فى أمر التماثيل . فاذا استطاعت كل واحدة من هذه الامم أن تحيى ماضيها القديم هذا وان تتدرج واياه على الزمن الى حين فتح الاسلام إياها وان ترى الاطوار التى مرت بها تحت حكم الحضارة الاسلامية ، اذن لاستطاعت كلها أن تربط بين بعضها البعض بروابط قوية وأواصر متينة ترجع على التاريخ الى الوف سنوات ماضية ، ولاستطاعت أن ترى من صور الوحدة التى تشتملها مالا يقف عند الخمسة عشر قرنا الاخيرة حين استقر الاسلام فيها . ثم كانت ادق فهماً وإدرا كالحياتها خلال العصر الاسلامى ، وأدق تصويرا لما بينها من اسباب الوحدة الاثيلة على الزمن هى هى التى تقوم بها حياة الامم ، وهى هى التى تقوم بها حياة الانسانية جمعاء .

وما ادعو أنا اليه انما هو مادعا الاسلام منذ اليوم الاول اليه . ودعوة الاسلام لم تقف عند النظر الى الامم التى خلت من

مصر فى مفترق الطرق

مصريون ينادون بالفرعونية

واسبانيون يدعون للعربية !!

— ١ —

للاستاذ محمد امين حسونة

اثيرت فى مصر أخيرا فكرة العربية والفرعونية وأى الثقافتين يحق لنا اليوم ان نأخذ بها ، بل الى أى المدنيتين يجب ان تتجه مصر فى نهضتها الحاضرة لتحمل طابعها الخاص وروحها الخاص . ومن السخرية اللاذعة ان يقوم فريق من المصريين ، ينحدرون من أصلاب فرعونية صميمة ، فيدعون للفرعونية فى بلادهم ، فى الوقت الذى ترتقم فيه صيحة المفكرين والكتاب الاسبانيين وعلى رأسهم خيل بن اميسة الشاعر النابه الصيت ، وفيلا سباسيا المستشرق المعروف ، فيدعون لاسبانيا بان تعيش فى ظل الثقافة والمدنية العربية ويطالبون رجال حكومتهم باعادة انشاء جامعة غرناطة لدراسة العلوم والآداب العربية ، وان تسلخ مقاطعة الأندلس عن الجمهورية كما سلخت قطالونيا . وان يوضع لها نظام نيابى خاص يكفل إعادة نشر التعليم بالعربية بين ابنائها ، ويهيبون اخيرا بعواطفهم ان يفكروا قليلا فى اعادة مجد الأمس المفقود ، يوم وفد جدودهم العرب الى البلاد ، فحملوا اليها طابع المدنية والحضارة ونشروا عقيدة دينية جمعت بين السلام والمساواة . ورفعوا مطارف الحكمة والآداب والعلوم فى الوقت الذى كانت اوربا تغط فى ظلمات الجهالة ووراثات القرون .

تجرى هذه الدعاية اليوم فى اسبانيا ، فتزعج فرنسا وتقض مضجعها لانها تخشى من بث فكرة الثقافة الاسلامية والوحدة العربية ، ان تسرى هذه الدعوى الى مستعمراتها فى شمال افريقية وهى أحرص ماتكون عليها ، وعلى تأييد نشر اللغة الفرنسية والثقافة اللاتينية بين سكانها . ويكتب السنيور فيلا سباسيا ليفخر بمجد أجداده العرب الذين لاتزال حضارتهم قائمة على هام الاندلس فيقول : (ليس فى طاقتنا نحن الاندلسيين المعتنقين بايمان ثبت انه دين الا المسيحية ، ان نجحد دين أسلافنا المسلمين ، فلئن كان الاول دين ضمائرنا فالثانى مابرح نتاج خيالنا القومى المزدان ببدائع التصور ، واننا على رغم لبانا الحديث واهمالنا لغة أسلافنا العرب ، مانزال حفدة أولئك البدو الذين تعودوا أن يخاطبوا الله تعالى وهم قعود أمام خيامهم المصنوعة من شعر الابل ... وكما اننا لو انتزعنا بعض الكلس عن جدران جل كنائسنا لوجدنا تحته لمعا مذهبة لاسم الله الاقدس المحفور بالحروف الكوفية ، كذلك لو خدشنا بأظافرنا بشرتنا الاوربية البيضاء لبرز لنا من تحتها بشرة العرب السمراء ... ان قوميتنا الغربية ماهى غير العرض الظاهر ، أما القومية العربية فهى حقيقتنا الخالدة)

هذه صورة سريعة للحركة القائمة اليوم فى اسبانيا المسيحية لاعادة الثقافة الاسلامية الى الاندلس ، وهذا جانب من شعور رجل مفكر أوربى تجاه المدنية العربية ، وهى فى مجموعها عواطف بريئة سامية نشكر عليها أبناء عمومتنا وخؤولتنا . فاسمع الآن مايحدث فى مصر العربية الاسلامية . يقوم فريق من الشباب المثقف ، فينادون لمصر بالفرعونية ، واننا منحدرون من صلب هؤلاء الاقوام الذين شادوا الاهرامات والهيا كل والدمن الباقية ، وازدهرت مدنيتهم بين طيبة ومنفيس ، وان العرب جاءوا الى هنا فاغتصبوا هذا الميراث القومى الجليل ، ثم يستشهدون على صحة ذلك بالاناشيد والاغانى القومية الحاضرة ، وكيف انها تمت الى الفرعونية بصلة قوية ، لما فيها من التشابيه العالية والاخيلة السامية من حيث المعانى والالفاظ والتراكيب ... الخ

لاتسمح لى بالذهاب الى القرية بعدها أبدا

أماهى ، رحمة الله عليها ، فما أذكر انها دخلتها ، حتى ولا لمجرد الزيارة .

***

وهنا دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وراح الجرسون يجمع المقاعد ويرصها فوق بعضها إيذانا بأنه لم يبق محل للبقاء ، فقمنا ، ودفع كل منا حسابه ، ثم انصرفنا صامتين

عبر الوادى كبير

هؤلاء الناس يجهلون تاريخ بلادهم ويفخرون بآثار غيرهم بل قل انهم لايعرفون من أنسابهم وأصولهم شيئا ، وسنثبت لهم بالادلة البينة فى ضوء النظريات العلمية الحديثة ، على ان الفرعونية التى ينادون بها ، فنيت واندثرت منذ أمد بعيد ، وان نظرية انقراض السلالات البشرية التى يحدثنا عنها (برتلو) فى صلب مقالنا هذا ، سوف تقضى على انك مايزعمون ، وان مصر الحاضرة عربية فى أصلها ، شرقية فى نزعاتها .

***

كانت مصر منذ أقدم العصور مهبط القبائل العربية الرحل يأتونها من الصومال ومن الحبشة وغيرها ، كما كانوا يأتونها عن طريق الشام . بل ان بعض المؤرخين يرمى الى ان المصريين من أصل سامى وانهم وفدوا الى هذه البلاد من الجزيرة ، كما ان التاريخ يحدثنا عن تلك القبائل التى حكمت الدلتا فى فجر التاريخ ، ونشأت فيها دولة قوية الجانب ، تركت آثارا فى اللغة وفى العقائد الدينية القديمة . وقد ظلت مصر مهبطا للقبائل العربية وغيرها ، تأتيها من الحجاز واليمن والعراق وسوريا فى العصور المتعاقبة ، الى حد انها تركت آثارا بعيدة فى الثقافة الفرعونية واللغة المصرية القديمة

فتح العرب مصر فى ديسمبر سنة ٦٣٩ وتم الاستيلاء عليها فى يوليه سنة ٦٤٠ ، وكانت تقطن مصر فى ذلك الحين شعوب وجاليات شرقية من الكلدانيين والاشوريين والفينقيين ، الى جانبهم كثير من الرومان واليونان ، استظل معظم هؤلاء بالمسيحية التى ظلت تبث دعوتها فى مصر زهاء ثلاثة قرون أو تزيد . فلما دخل العرب وجدوا كل هؤلاء تحت لواء واحد هو المسيحية واندمجت هذه الجاليات الاجنبية شيئا فشيئا فى الاقباط ، السكان الاصليين ، الى ان اكتسبوا بمرور الزمن الشخصية المصرية ليتميزوا بها عن العرب الفاتحين . ويقدر بعض المؤرخين — استنادا الى الجزية التى كانت تدفع — عدد كل هؤلاء بنحو ستة ملايين نسمة ، لم يسلم منهم الا بنسبة ثلاثة فى المائة ، أى الذين كانوا يعجزون عن دفع الجزية وغيرهم من الوثنيين ، ولم يرغم العرب أحدا فى معتقده على الاسلام ، عملا بقوله تعالى : « لا اكراه فى الدين » كما سيأتى بعد :

كانت روح المحبة سائدة على الدوام بين العرب والاقباط ، والشواهد على ذلك كثيرة ، الى حد ان الاقباط ساعدوا العرب على فتح مصر ، لما عرفوا عنهم وما خبروه من أخلاق العرب الرحل الذين امتزجوا بهم قبل الاسلام ، وهنا يقول بتلر مؤلف (فتح العرب لمصر) فى مقدمة كتابه المذكور : « انه قبل غزو العرب ودخولهم فعلا فى البلاد كانت مصر قد وضعت عليها الجزية مدة ثلاث سنوات او تزيد ، وضعها عليها قورس (المقوقس) ثم منع تلك الجزية فجاء العرب يغزون البلاد من أجل ذلك ، وان المقوقس كان من القبط وانضم الى العرب وان القبط رحبوا بالغزاة ورأوا فيهم الخلاص واسدوا اليهم كل مساعدة »

ثم انظر الى معاهدة (المساواة بين المسيحيين فى حكم القانون) التى عقدها العرب مع الاقباط وضمنوا بها عقيدتهم الدينية وعدم التعرض لها ، ثم الى روح الوئام التى سادت بين العرب والاقباط ، تر ان العرب كما قال عنهم المستشرق الالمانى بيكر ، وزير المعارف الالمانية السابق . فى كتابه The Christianity & Islam لم يرغموا احدا مطلقا على الاسلام . بل ان الامر كان بعد ذلك بالعكس . بدليل انهما تأسس نظام البيروقراطية فى الدولة المروانية فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان . ووضع النظام المالى للموازنة بين الدخل والخرج . تبين ان الدخل يتناقص عاما بعد عام ، فبعث الحجاج بن يوسف الثقفى عامل الدولة المروانية على الشرق ، يسأل الولاة عن سبب هذا النقص ، فكانت ردودهم جميعا ، ان النقص فى الدخل انما هو بسبب دخول الناس فى الاسلام ، فأمرهم الحجاج ألا يقبلوا دعوة الاسلام من احد ، إلا بشروط تضيق عليه الخناق ، ذكر منها شرط الكشف عليه فان وجد مختونا ترك وشأنه وإلا اجبر على دفع الجزية .

[illegible] وانما أوردنا هذا لنعطى صورة من النفسية العربية ذياك الوقت ، وان العرب غزوا مصر وتوطد حكمهم من الشمال الى الجنوب ولم يرغموا أحدا من أهلها على الاسلام ، بل ان الامر كان أكثر من هذا ، فانه كان من شروطهم مع المسيحيين فى مصر ان يدفعوا الجزية اليهم على ان يأمنوا فى بلادهم ويدفع عنهم من أراد غزوهم من عدوهم ، وان حكمهم كان بركة على مصر « فتح العرب لمصر — ص٣٧٣ » . وعلى هذا سلمنا جدلا بان الذين دخلوا الاسلام من السكان الاصليين كانوا اقلية لايؤبه لها ،

مصطفى أن يتحدث . وأبدى زميلى اقتناعه بما سقت من الحجج .

ولقد كان من بينها فيما أذكر أنى قصصت عليه اعتراض الاستاذ يهودا وأبديت له ان عدم انتشار تاريخ الزراعنة هو الذى أدى الى انتشار كثير من الاخطاء عن حياتهم وعقائدهم ونظمهم ، وأن المعرفة الصحيحة لهذا التاريخ كانت كفيلة بأن تمحو من الاذهان الكثير من هذه الاخطاء . فهذا الذى يقال عن الاهرام وبنائها تحت سلطان الذل والاكراه خطأ شائع مما كان أحد ليقع فيه لو ان الناس عرفوا الحياة الدينية لذلك العهد ، ولو انهم قدروا ان هذه المعجزات الفذة فى فن العمارة مما لاقبل به لعصرنا الحاضر وفيه مافيه من بخار وكهرباء ولا سلكى وفيه مافيه من معجزات فى العمارة ذات جلال رهيب وهو مع ذلك لايبلغ جلال هذه الاهرام ورهبتها — لو انهم قدروا أن هذه المعجزات فى فن العمارة إنما حفز الفراعنة الى تشييدها شعور دينى صادق ملأ قلوبهم وملأ قلوب المصريين يومئذ جميعا ، لادركوا ان الالوف وعشرات الالوف التى كانت تقوم بنقل حجارتها وباقامة عمارتها إنما كانت تجيء طائعة مختارة يدفعها ايمانها الى تمام هذه المعجزات ثقة منها بأن كل مجهود تبذله فيها إنما هو مجهود مقدس يحسب لها فى صالح الاعمال يوم الحساب . وشتان بين هذا الدافع المعنوى السامى وبين مايصوره أكثر المؤرخين من ان الظلم وحده هو الذى شاد الاهرام ، وان الالوف من العمال الذين كانوا يكدحون واصلين ليلهم بنهارهم فى إقامتها إنما كانوا يعملون يدفعهم الاكراه وتشوى ظهورهم وجنوبهم السياط . والايمان الذى أتم معجزات الاهرام الكبرى هو بعينه الذى يقيم اليوم البيع والكنائس والمساجد . وكل مصرى يعرف ان أية قرية من القرى يوم تفكر فى إقامة مسجد بها يسارع أبناؤها جميعا الى المعاونة فى إقامته معاونة صادقة خالصة لوجه الله ، وكل منهم يملأ الايمان قلبه بأن كل لبنة يضعها فى بناء هذا المسجد تسطر له فى كتاب حسناته . هذا الروح الصادق الايمان هو الذى استطاع أن يقيم فى ربوع العالم جميعا أروع آثاره وأنظم عماراته . وبمقدار مايكون فى هذا الروح من قوة الايمان يكون بقاء الآثار التى يشيدها على الزمن . فاذا كان أبو الهول وكان الكرنك وكانت الاهرام قد بقيت إلى اليوم تهزأ بالقرون وتطاول الشمس والقمر وكانها قرين الشمس وصنو القمر فذلك لان النفس المصرية كانت بقوة إيمانها على عهد الفراعنة صنو الشمس والقمر وصنو الوجود كله خلوداً وبقاء . فأى عبث بالتاريخ مع هذا وأية جناية عليه أكبر من تصوير هذا الروح على أنه روح ذلة وخضوع ، وكأنما يستطيع الروح الذليل شيئا باقيا ، بله شيئا خالداً .

أما القول بأن الدعوة الى احياء الفرعونية فى الفن والأدب وماسواهما من ميادين الحياة إنما يقصد به الى أن تحيى مصر اليوم كما كانت تحيى مصر الفراعنة ، تعيش كما كانت تعيش وتؤمن بما كانت به تؤمن ، وان ذلك محاولة المستحيل لانها محاولة رد التاريخ القهقرى وصد تياره ليكر راجعا الى المنبع بدل أن يظل مندفعا الى المصب ، فاعتراض صحيح لو أنه كان تصويرا صادقا للفكرة التى ادعو اليها . لكنه تصوير لاشىء البتة من الصحة فيه . فصد تيار الزمن أعظم استحالة من صد تيار النهر ومن صد تيار الحوادث . وما بالك اذا أريد رد الزمن ناكصا على عقبيه ، وما بالك اذا أريد عكس آية الوجود بأن نستدبر المستقبل ونولى وجوهنا راكضين الى غايات الماضى . لكن ثم حقيقة ليست أقل من هذه وضوحا وقوة . تلك ان كل حاضر لايتصل بماضيه لا يستقبل له . قد تراه يبدو يائسا مشرقا كما تبدو الحشائش الشيطانية تكسو وجه الارض رواء وبهجة . لكن هذه الحشائش لابقاء لها ولارجاء فيها . كذلك الحاضر الذى لاماضى له متصل به قد يبدو زاهى الاشراق براق الصفحة . لكنه سرطان مايندوى ويذيل ليسقط من صحف التاريخ حين تحاول هذه الصحف أن تصل أمس أمة بغدها ، أو أمس العالم بغده . لذلك لم تساهم حضارة فى حياة الوجود بنصيب يستبقى لها اسمها فى سجل الوجود الا بمقدار تأصل جذورها فى ماضى الحياة . ولذلك لم يستطع الغرب اقامة حضارة حتى وصل بينها وبين حياة اليونان وحياة روما . وهو لم يقصد حين قام بالاحياء اليونانى والرومانى ان تعيش أوربا فى القرن السادس عشر المسيحى عيش روما وعيش اليونان فيما قبل المسيحية بعشرة قرون ، وإنما أراد أن يصل بين روح اليونان وروما وروح الغرب الحديث بصلة نشأت عنها الحضارة العلمية والصناعية والاقتصادية الحديثة . وأنا لاأقصد من الاحياء الفرعونى الى أكثر من هذا . لاأقصد الا أن يتصل لروح المصرى الحديث بالروح المصرى القديم وأن يستمد وحيه وأن يتابع هذا الوحى على تعاقب العصور من بعد الفراعنة أثناء حكم البطالسة وأثناء العهد الرومانى فى مصر وأثناء أطوار الحياة المختلفة التى تعاقبت على مصر الاسلامية الى عهدنا الحاضر . ومايخالجنى

كنا نتحدث فيه . فلماذا كرنا له ما كان من مخاوفنا بسبب تأخيره بدت على وجهه أمارات تردد حاول بعدها أن يعدل بالحديث الى غير هذا الموضوع . لكن أحدنا ألح به يسأله عن علة تأخيره . ورأينا نحن على قسمات حمزة مادلنا على أن في الامر سرا لا يأبى هو أن يبوح به ولنا في الاستماع اليه لذة أية لذة . فشاركنا صاحبنا في الحاحه . وبدرت من أحدنا هذه الكلمة : لعل شيئا يتصل بزهيرة كان سبب تأخرك . فاندفع حمزة قائلا :

— نعم . نعم . بسبب زهيرة تأخرت . لقد قضيت عندها هذا النهار منذ صباحه . ولقد رأيتها اليوم غيرها في سابق أيامها . لقد كانت دائما ساكنة سكون أبي الهول برغم ما تعرف من تناول الناس حديثها . بل لقد كانت تبتسم إشفاقا على هؤلاء الذين يتهمونها بأخس التهم وازدراء إياهم وعبثا بحمقهم وجهلهم الحياة واسراعهم إلى القضاء في أدق شؤونها ، شؤون العواطف . أما اليوم فكانت ساكنة أكثر من سكون أبي الهول ، كانت ساكنة سكون القبر . فلما اطمأن مقامي عندها وبدأت أبادلها الحديث قالت إنها فكرت طويلا فيما يقول الناس عنها وخشيت أن يعلق بذهني منه شيء اقسوبه في الحكم عليها وأنها تريد لذلك أن تقص علي قصتها . وفي قصصها قضت الوقت كله . وما أدري أكانت قصتها اعترافا أم وصية أم دفاعا . لكنها ختمت قصتها بقولها .

— أما اني ، وقد قصصت عليك حديثي ، كفارة الحب .

ثم إنها اعتذرت قائلة إنها تشعر بصداع وطلبت الى خادمتها أن تجيئها بكوبة ماء صبت فيه مسحوقا أبيض من ورقة أخرجتها من حقيبتها ثم أشارت الى أنها بحاجة الى الاستراحة فاستأذنتها وجئت الى موعدكم . ولئن كنتم قد لاحظتم على شيئا من اضطراب النفس فهو من أثر هذه القصة التي روت والتي جعلتني أشعر حقا بأنها كفارة لذنوب لا تقم عليها أثقل تبعاتها .

قال أحدنا — هات الوصية

وقال الآخر — هات الدفاع

وقال ثالث في صوت محزون — اروِ ياصاح حديث كفارة الحب :

اعتدل حمزة في مقعده وان بقي ملقيا بنظره الى الأرض في إطراقة المهموم وأمسك جبينه بيده كأنما يحاول ان يستحضر الألفاظ التي سيمها ثم قال :

— أخشى أن تخونني الذاكرة فأقع فيما يقع فيه غيري من الناس من سوء تصوير العواطف وما تجري به الأقدار في شأنها فاسيء الى زهيرة حين أريد أن أقف من الأمر عند رواية حديثها . على أني سأحاول جهدي رجاء أن لا أضيع شيئا من الفاظها حين جلست في مقعدها الطويل جاسة المطمئن وقالت في سكينة الحازم الذي اعتزم امره :

***

«تذكر ياصاح زواجي بعد وفاة أمي ونوالي أجازاتي المدرسية . كنت قد بلغت الثالثة والعشرين وقد رفضت أكثر من خاطب وأملت بهذا الرفض المتكرر أبي . ثم انقضى عام بتمامه وما يذكرني خاطب حتى خيل لأبي أنني قد قضيت بزائف كبريائي على حظي وانني سأبقى من بعد عانسا ما حييت . ولم دفع عمي لتحدثني في هذا الامر وأترد الى رأسي عقلي كما كانت تقول . وبلغ من الحاحها اجابة لأمره انني شعرت بنفسي عالة في البيت وعبئا على كواهل أبي وفكرت في أن أشتغل في التعليم أو أمتهن أي عمل يريح أهلي مني وأفضيت الى عمتي بذات نفسي . ولا تسل عن الثورة التي ثارها أبي وعن اتهامه اياي بالعقوق وبمخالفة ارادته وهو لا يريد لي إلا الخير . وهل خير عنده لامرأة في غير الزواج وتدبير مملكة المنزل وانجاب البنين وتربيتهم ليكونوا لنا في الحياة عونا وبعد الحياة ذكرا وللعالم عمرانا . أما هذا الاقتحام لميادين العمل مما تلجأ اليه بنات اليوم فلم يكن عنده الا ضلالا عن طريق الطبيعة والحق وثورة على أمر الله وما خلقنا له . وانقضت الايام وعدلت عما كنت فكرت فيه وهدأت ثورة أبي ونالني من عطفه مالم يحرمني منه قط . ثم جاء يخطبني ذلك الذي أصبحت من بعده زوجا . وأبا لبنتي عمتي النبأ مصحوبا برغبة أبي في أن يتم الزواج . ماذا عساي أصنع ؟ أأرفض فأثير ثائرة جديدة وأصبح البنت العاقة الثائرة على أمر الله الضالة عن طريق الطبيعة والحق . أأقبل وأنا أعرف ان هذا الرجل قليل البضاعة من العلم وإن يكن ذا سعة من المال ، وأعرف انه يكبرني بعشرين سنة ، وهو الى ذلك ليس بالجميل ولا هو ذا وفرة من الذكاء أو خفة الروح . ورأت عمتي ترددي فامتعضت ونبهتني الى ما في ذلك من إغضاب أبي الذي يريد لي الخير والذي يعرف من شؤون الحياة في رأيها مالا أعرف . وناديا أبي أختنا باسمها بصوت ممتلىء قوة وعزيمة ففت ذلك في قواي وأضعف ترددي ولم أجد ما أقول لعمتي الا انني أسلمت الامر اليهم والتبعة في سعادتي وشقائي من بعد عليهم . وقبلتني عمتي فرحة متهللة وخرجت تهرول ملبية النداء . أما أنا فانهملت من عيني دمعة يأس واستسلام

فلما انتهى المسلمون الى تبوك وعرف محمد امر انسحاب الروم ونمى اليه ما اصابهم من خوف لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم . واقام عند الحدود يتحدى من شاء ان ينازله أو يقاومه ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك اليها احد . وكان يوحنا ابن رؤبة صاحب أيلة احد الامراء المقيمين على الحدود . ولقد وجه اليه النبي رسالة أن يذعن أو يغزوه فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا وتقدم بالطاعة وصالح محمدا وأعطاه الجزية كما صالحه اهل جرباء واذرح واعطوه الجزية . وكتب رسول الله لهم كتب امن هذا نص احدها الذي كتب ليوحنا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة واهل ايلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر ، فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » . وايذانا بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد ليوحنا رداء من نسج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعاية بعد ان اتفق على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار في كل عام .

لم يبق لمحمد حاجة بالقتال بعد انسحاب الروم وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه وبعد أمنه عودة الجيوش البيزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض اكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة ومعاونته جيوش الروم اذا جاءت من ناحيته . لذلك بعث اليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس وانقلب هو بجيشه راجعا الى المدينة . وأسرع خالد بالانقضاض على دومة في غفلة من مليكها الذي خرج في ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردون بقر الوحش . ولم يلق خالد مقاومة تذكر حتى أخذ حسان وأخذ اكيدر أسيرا وهدده بالقتل ان لم تفتح دومة أبوابها . وفتحت المدينة الابواب فداء لاميرها وساق خالد منها الفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بر وأربعمائة درع وذهب بها ومعه اكيدر حتى لحق بالنبي في عاصمته . هنالك عرض محمد الاسلام على اكيدر فأسلم وأصبح له حليفا .

لم يكن عود محمد على رأس هذه الالوف من جيش العسرة من حدود الشام الى المدينة بالامر الهين . فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذي عقد مع أمير ايلة والبلاد المجاورة له ولم يقيموا كبير وزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ؛ بل كان كل الذي نظروا اليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة وتحملوا في قطعها ما تحملوا من الاذى وهاهم يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذي فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوما . فهل لهذا قطعوا الصحراء في شدة القيظ وبينما كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها . وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد فينقل من ملأ الايمان قلوبهم نبأهم اليه فيأخذ المستهزئين بالشدة حينا وباللين حينا . والجيش يسير قافلا الى المدينة ومحمد يحفظ النظام في صفوفه حتى اذا انتهى اليها لم يلبث ابن الوليد ان لحقه بها . لحقه بها ومعه اكيدر ومعه ما حمل من دومة من إبل وشاء وبر ودروع ، وعلى اكيدر حلة من ديباج موشى بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها . هنالك اضطرب الذين تخلفوا عن أتباعه اضطرابا رد المستهزئين إلى صوابهم . جاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب . وأعرض محمد عما صنعوا تاركا لله حسابهم . لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم واعترفوا بذنبهم . هؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية . وهؤلاء الثلاثة أمر محمد فاعرض المسلمون عنهم خمسين يوما ما يكلمهم أحد ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة . ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة وعفا عنهم ونزل فيهم قوله تعالى في سورة التوبة : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم »

من يومئذ بدأ محمد يشتد في معاملة المنافقين شدة لم يألفوا

من قبل . وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطبا يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه . وهم اذا ازدادوا من بعد اضعاف زيادتهم اليوم ، وذلك ما لم يقم بنفس محمد شبهة ريب فيه بعد ان وعده ربه لينصرن دينه وليعلين كلمته ، اذن لكان المنافقون أشد خطرا . ولقد كان له من قبل حين كان الاسلام محصورا بالمدينة وما حولها ان يشرف بنفسه على ما يجرى بين المسلمين . اما وقد انتشر الدين فى انحاء بلاد العرب جميعا وهاهو يشارف الانتقال منها فكل تهاون مع المنافقين شر تخشى مغبته وخطر ما اسرع ما يستشرى إذا لم تجث حرثومته . بنى جماعة مسجدا بذى اوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار . والى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون ان يحرفوا كلام الله عن مواضعه وان يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضرارا وكفرا ، وطلبت هذه الجماعة الى النبى ان يفتتح المسجد بالصلاة فيه . وكان طلبهم هذا قبل تبوك . فاستمهلهم حتى يعود . فلما عاد وعرف من امر المسجد وحقيقة ماقصد اليه من اقامته امر بإحراقه فضرب بذلك مثلا ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانكمشوا ولم يبق لهم من يحميهم الا عبدالله بن ابى شيخهم وقائدهم

على ان عبدالله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين مرض إثرهما وتوفى .

ولما كان مابينه وبين النبى منذ نزل المدينة قد جعل محمدا لا ينساله الا بالحسنى فانه مالبث ان دعى للصلاة عليه حتى صلى وقام على قبره الى أن دفن وفرغ منه . وبوفاته انهار ركن المنافقين وآثر من بقى منهم ان يخلص لله توبته

بغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها وامن محمد كل عادية عليها واقبل سائر اهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الاسلام فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبى عليه السلام . وكذلك اقام محمد بالمدينة مغتبطا بما أفاء الله عليه . وفى هذه الاثناء كان ابنه ابراهيم قرة عين له ستة عشر شهرا واثنانية عشر شهرا . فكان اذا فرغ من استقبال الوفود ومن القيام بأمر المسلمين ومن اداء حق الله ورسالته وحق اهله جميعا لهم اطمأنت نفسه برؤية هذا الطفل الذى ظل يترعرع وينمو ويزداد شبها بمحمد ووضوحا يزيد اباه له حبا وبه تعلقا . وخلال هذه الاشهر جميعا كانت حاضنته ام بردة ترضعه وتسقيه لبن المراضع التى اهداها النبى . ولم يكن ثمة محمد بابراهيم لغاية فى نفسه لها اتصال برسالته او بمن يخلفه . فقد كان عليه السلام فى إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر فى ولده ولا فيمن يرثه . بل كان يقول : « نحن معاشر الانبياء لا نورث ماتركناه صدقة » . انما هى العاطفة الانسانية فى ابسط معانيها ، العاطفة الانسانية التى بلغت من السمو فى نفس محمد مالم تبلغه فى نفس احد غيره ، العاطفة الانسانية التى جعلت العربى يرى فيمن يخلفه من الذكران صورة من صور الخلود — هذه العاطفة هى التى جعلت محمدا يخلع على ابراهيم كل هذا الحب ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده . ولقد زاد هذه العاطفة رقة وقوة فى نفسه انه فقد ولديه القاسم والطيب فى طفولتهما ومايزالان فى حجر امهما خديجة ، وانه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الاخرى بعد إذ كبرن وصرن ازواجا وامهات فلم يبق له منهن غير فاطمة . هؤلاء الابناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فرقدوا بعينه تحت الثرى تركوا فى نفسه قرحة الم اندملت بمولد ابرهيم واثمرت مكانها رجاء وأملا . وكان حلاله ان يمتد لا بهذا الأمل غبطة واستبشارا . لكن هذا الامل لم يكن ليطول الا تلك الاشهر التى ذكرنا . فقد مرض ابراهيم بعدها مرضا خيف منه على حياته فنقل الى نخل بجوار مشربة ام ابراهيم وقامت من حوله مارية واختها سيرين تمرضانه . ولم يطل بالطفل المرض . فلما كان فى الاحتضار واخبر النبى بأمره اخذ بيد عبدالرحمن بن عوف يعتمد لشدة الم عليه حتى اتيا الى النخل بجوار العالية التى تقوم المشربة اليوم مكانها فوجد ابراهيم فى حجر امه يجود بنفسه فأخذه فوضعه فى حجره وقلبه يجف ويده تضطرب وقد ملك الحزن عليه فؤاده وبدت صورة الألم على قسمات وجهه . فوضعه فى حجره وقال : « انا بإبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا » . ثم وجم وذرفت عيناه . والغلام يجود بنفسه وامه واخته تصيحان فلا ينهاهما رسول الله . فلما استوى ابراهيم جثمانا لا حراك به ولا حياة فيه وانطفأ بموته ذلك الأمل الذى تفتحت له نفس النبى زمنا زادت عينا محمد تهتانا وهو يقول : « يا ابراهيم لولا انه امر حق ، ووعد صدق ، وان آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنا عليك بأشد من هذا » . وبعد ان وجم هنيهة قال . « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا مايرضى الرب وانا بك يا ابراهيم لمحزونون » . ورأى المسلمون مايجد محمد من حزن وحاول حكماؤهم ان يردوه عن الامعان فيه .

(الجامعة العربية) من الزمن وسخرت من الاستعمار الغربى وشمخت فى روعة تضم تحت لوائها المنوى مايقرب الثلاثة ملايين نفس تنبض بقلب واحد . وتشعر بشعور واحد . وتتناجى بلسان واحد رغم ترامى اطرافها . وتباين ظروفها . ومصر هى قطب الرحى فى هذه الجامعة .

ثالثا — ان (الجامعة الشرقية) تطلق على فكرة أعم من الوحدة العربية (والجامعة العربية) . وهى ترمى الى تكوين جبهة متحدة من جميع الامم الشرقية على اختلاف اجناسها ولغاتها استغلالا لما بينها من شعور متبادل بوجوب التعاون والتآخى فى شتى نواحى النشاط الانسانى . وقد نالت هذه الفكرة فى مصر تأييدا عاما ، خصوصا من الطبقة المستنيرة

رابعا — ان المقارنة بين مصر الفرعونية (ومصر العربية) لاتقوم على اساس . فالفرعونية فكرة وطنية محلية خاصة لاتتعارض مع الجامعة العربية العامة ، والفرعونية فكرة ادبية معنوية لاحياء عصر قديم وماض مجيد لبث الثقة والرجاء نحو مستقبل وطيد ، (والجامعة العربية) فكرة اجتماعية مادية لها كيانها فعلى ووجود عملى يتمثلان فى الامم الناطقة بالضاد

وشتان بين معدوم يراد احياء ذكراه ، وبين موجود يراد تنظيم خطاه وتوثيق عراه

الاسكندرية ٢٣ر٩ر٩٣٣ مصطفى فهمى

يصدر قريبا

كتاب
ذكرى ابن خلدون

عرض نقدى مستفيض لحياته وتراثه الفكرى والاجتماعى

ومكانة فلسفته ونظرياته الاجتماعية من النقد الحديث

بقلم

محمد عبد الله عنان

مؤلف : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام : ديوان التحقيق مصر الاسلامية .... الخ

كفارة الحب

قصة مصرية حقيقية

الدكتور هيكل بك

كانت تناهز الخامسة والثلاثين ، صبوح الوجه حلوة الابتسامة ذكية النظرة معتدلة القامة ، الوجه ادنى الى القصر غير بادنة وغير نحيفة . وكانت شفتاها المقدتين تزيدان ذكاء نظرتها وحيا بالكثير من المعانى . وكان أصدقاؤها لا يعرفون من أمرها إلا القليل الذى ينقله اليهم صديقنا وقريبها حمزة .. لكنهم كانوا يعنون بانبائها لما تناقلت الالسن وتناهبت الاسماع من حديثها فى الشهور الأخيرة . فالقاهرة مدينة شديدة التسامح مع عبث الهوى شديدة الاغضاء عمن يسلمون عنانهم لدوافع تياره ، لكنها شديدة الدهشة لصادق الحب . ترهف الآذان إذا حدث أحدث فى حى من احيائها عن غرام صادق وعاطفة تستعذب التضحية وتستهين بالموت . لذلك أثارت قصة زهيرة دهشة القاهريين وطلعتهم وزادت مافى نفوس ظرفائهم من شك أصيل فى صدق عاطفة الحب او فى استطاعة امرأة أن ترى فى الحب خطيئة تستأهل التفكير فيها

وكان صديقنا وقريبها حمزة يخطو الى الاربعين بقلب مطمئن ونفس باسمة للحياة ساخرا من الحياة . وكان مع ذلك شديد العناية بشؤون يعتبرها كثيرون من أصحابه تافهة ويراها هو جليلة الخطر ماداموا لا تعنيه وحده ، بل تعنى آخرين معه . من ذلك أنه كان شديد الدقة فى مواعيده حتى لكنا نضبط ساعاتنا ساعة يدق الجرس ويدخل هو علينا ، ولكنا نتهمه بانه إذا الفى قصة تقدم عن موعده دقيقة أو دقيقتين وقف بالباب ممسكا ساعته بيده حتى تكون الثانية المضبوطة التى يدق الجرس فيها . وكنا يوما ننتظره فى الساعة الخامسة تماما . وقبيل هذا الموعد بنزهة دق الجرس فامسكنا ساعاتنا بأيدينا وتلاقت نظراتنا تتهم الساعات جميعا بتقدم بضع ثوان عن الموعد الدقيق . لكن الداخل لم يكن حمزة . وانقضت بعد الخامسة دقائق وانقضى ربع الساعة وانقضى نصف الساعة ولم يجىء . هنالك بدأ يأسنا ورنا القلق عليه وجعل كل منا يلقى مايجول بظنه أنه سبب تأخره . قال أحدنا : لابد أصابه مرض مفاجىء . وقال آخر : بل تعلق بأذياله فى اللحظة الأخيرة صديق لوح . وقال ثالث : ما أكثر مايصيب الناس من حركة المرور فى هذه الايام . وبدأ كل يقص ماحمله على ظنه . وفيما نحن كذلك دق الجرس ودخل حمزة فيا وجلس مطرقا وخلع طربوشه ووضعه الى جانبه ثم طلب فنجانا من القهوة وسألنا عما

يطعنهن . والنقد التاريخي يأبى كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هذا الهجر والتهديد. فاذا كان الرجل عظيما كمحمد ، رفيقا كمحمد ، واسع الصدر طائل الأناة والحلم منصفا بما لمحمد من سائر الصفات التي يقر له بها مؤرخوه جميعا على سواء ، كان اعتبار أي من الحادثين لذاته سببا لهذا الهجر والتهديد بالطلاق مما يزور عنه النقد التاريخي ، وينأى عنه شد النأي بجانبه . وإنما يطمئن هذا النقد ويستقيم منطق التاريخ اذا سيقت الحوادث المساق الذي لا مفر معه من أن تؤدي الى نتائجها المحتومة فتصبح بذلك أمورا طبيعية يسيغها العقل ويرضاها العلم. وما فعلنا نحن هو في نظرنا المساق الطبيعي للحوادث ، وهو الذي يتفق مع حكمة محمد وعظمه وحزمه وبعد نظره

ويتحدث بعض المستشرقين مما نزل من الآيات في مستهل سورة التحريم مما نقلنا هنا ويذكر أن كتب الشرق المقدسة جميعا لم تشر إلى مثل هذا الحادث المنزلي على هذه الصورة . وما أحسبنا بحاجة إلى أن نذكر ما ورد بالكتب المقدسة جميعا والقرآن من بينها عن قوم لوط وفضيحتهم وما كان من مجادلتهم مع الملكين في بيتي لوط ، ولا ما ورد في هذه الكتب عن امرأته وأنها كانت من الغابرين . لكن الكتب المقدسة جميعا جعلت من قصص الرسل وسيرهم وما صنعوا وما أصابهم عبرة للناس. وقد تناول القرآن من ذلك الكثير وقص الله فيه على رسوله أحسن القصص. والقرآن لم ينزل لمحمد وحده وإنما نزل للناس كافة . ومحمد نبي ورسول خلت من قبله الرسل الذين قص القرآن أخبارهم . فاذا قص القرآن من أخبار محمد وتناول من سيرته ليكون للمسلمين مثلا وليكون للمسلمين فيه أسوة حسنة وأشار إلى حكمته في تصرفاته فلا شيء في ذلك يخرج عما أوردت سائر الكتب المقدسة وما أورد القرآن من سير الأنبياء . فاذا ذكرت أن هجر محمد نساءه لم يكن لسبب منفرد من الأسباب التي رويت في شأنه ، ولم يكن لأن حفصة أفضت الى عائشة بما فعل محمد مع مارية مما يفعل كل رجل مثله مع أزواجه وما ملكت يمينه ، رأيت في هذه الملاحظة التي أبديها بعض المستشرقين مما لا يثبت أمام النقد التاريخي ولا يتفق ومنطق الحوادث وما جرت به الكتب المقدسة في شأن الأنبياء وحياتهم وأخبارهم .

لم يغير هذا الحادث المنزلي وهذا الاضراب والاضطراب بين النبي وأزواجه من سير الشؤون العامة شيئا. وكانت الشؤون العامة من بعد فتح مكة والاسلام أهلها قد بدأ يتضاءل خطرها، وقد بدأت العرب جميعا تحس جلال هذا الخطر : فالبيت الحرام كان بيت العرب المقدس يحجون اليه منذ أجيال وأجيال . وهذا هو البيت الحرام وما يتصل به من سدانة ورفادة وسقاية وما يتصل بالحج اليه من مختلف الطقوس قد أصبح في حكم محمد وفي حكم الدين الجديد. فلا حرم إذن أن تزداد شؤون المسلمين العامة لفتح مكة وأن يزداد العرب إحساسا بالاسلام في كل ناحية من شبه الجزيرة . وازدياد الشؤون العامة يحتاج بطبعه إلى مزيد في النفقات العامة . لذلك لم يكن بد من أن يدفع المسلمون زكاة العشر وان يدفع العرب الذين أصروا على جاهليتهم ما يفرض عليهم من خراج. قد يحرجهم ذلك وقد يدعوهم إلى التذمر ولكن ما أكثر من التذمر. لكن ما اتصل بالدين الجديد من نظام في شبه الجزيرة جديد لم يجعل من جمع العشر والخراج مخرجا . ولهذه الغاية أوفد محمد صيارفه بعد قليل من عوده من مكة ليجمعوا اليه عشر ايراد القبائل التي دانت للاسلام من غير أن يتعرضوا الأصول أموالها . وذهب هؤلاء كل وجهته فلقنتهم القبائل بالترحاب ودفعت لهم زكاة العشر طيبة بها نفوسهم لم يندد عن ذلك غير فرع من بني تميم وغير بني المصطلق. فقدان الصيرف يقتضي قبائل في جوار بني تميم زكاة العشر وهم يدفعونها من إبلهم وأموالهم فسارعت بنو العنبر — وهي فخذ من بني تميم — اليه قبل أن يطالبها بزكاتها تحمل نبالها وسيوفها وطردته من أرضها . فلما بلغ الخبر محمدا بعث اليهم عيينة بن حصن على رأس خمسين فارسا انقضوا عليهم في سر منهم ففروا وأصاب المسلمون الاسرى والسبايا ويزيدون على خمسين رجلا وامرأة وطفلا وعادوا موفورين إلى المدينة . وحبس النبي هؤلاء الاسرى . وكان من بني تميم جماعة اسلموا وقاتلوا إلى جانب النبي عند فتح مكة وفي حنين، وكان منهم من لا يزال على جاهليته . فلما عرفوا ما أصاب أصحابهم من بني العنبر أرسلوا إلى النبي وفدا من أشرافهم نزلوا المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبي من وراء حجراته أن اخرج الينا يا محمد. وآذى نداؤهم النبي فما كان ليخرج اليهم لولا أن اذن الظهر للصلاة . فلما رأوه ذكروا ما صنع

صدق يوم ولد بوزن شعرة ورقا على كل واحد من المساكين .. وهو قد ذمه لترضعه أم سيف وجعل أم بردة على رعايته وجعل في حيازتها سبعا من الماعز ترضعه لبنها . وهو قد كان يزور كل يوم بدار مارية ليراه وليزداد أنسا بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة ومسرة بنموه وجماله . أي شيء أشد من هذا كله إثارة للغيرة في نفوس أزواج لم يلدن ، وإلى أي حد تدفع الغيرة هاتيك الازواج ؟!

حمل النبي ابراهيم يوما بين ذراعيه الى عائشة وهو فياض بالبشر ودعاها لترى ما بين ابراهيم وبينه من عظيم الشبه فنظرت الى الطفل وقالت إنها لا ترى بينهما قط شبها. ولما رأت النبي فرحا بنمو الطفل لاحظت في غضب ان كل طفل ينسال من الابن ما يناله ابراهيم يكون مثله أو خيرا منه نموا . وكذلك كان مولد ابراهيم سببا أثاره من زوجات النبي امتعاضا لم يقف أثره عند هذه الاجابات الجافة بل تعداه الى اكثر منها، وترك في تاريخ محمد وفي تاريخ الاسلام من الاثر ما نزل به الوحي وقدسه كتاب الله الكريم

وكان طبيعيا ان يحدث هذا الاثر . فقد جعل محمد لنسائه من المكانة ما لم يكن معروفا قط عند العرب . قال عمر بن الخطاب في حديث له : « والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا في أمر ائتمره اذ قالت لي امرأتي : لو صنعت كذا وكذا . فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا وما تكلفك في أمر أريده . فقالت لي عجبا لك يا ابن الخطاب . ما تريد أن تراجع انت وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . قال عمر : فآخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يا بنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . فقالت حفصة : والله انا لنراجعه . فقلت : تعلمين اني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنية ! لا يغرنك هذه التي قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها . ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها فقالت لي أم سلمة : عجبا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي ان تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وازواجه . قال عمر : فأخذتني أخذا كسرتني به عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها » . وروى في الصحيح ان أبا بكر استأذن على النبي ودخل بعد ان أذن له ثم استأذن عمر ودخل هو الآخر بعد الاذن فوجد النبي جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا فقال عمر : « لاقولن شيئا أضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة تسألني النفقة، فقمت اليها فوجأت عنقها . فضحك رسول الله وقال : هن حولي يسألني النفقة . فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده . فقلن والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا شيئا ليس عنده » .

وإنما دخل ابو بكر وعمر على النبي لأنه عليه السلام لم يخرج للصلاة فتسامل المسلمون بعدها عما منعه . وفي حديث أبي بكر وعمر مع عائشة وحفصة نزل قوله تعالى من سورة الاحزاب : « يا أيها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » .

ثم ان نساء النبي كن يأتمرن به . فقد كان اذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن . فدخل على حفصة في رواية وعلى زينب بنت جحش في رواية فاحتبس عندها اكثر مما كان يحتبس فأحدث ذلك الغيرة في نفوس سائر نسائه . قالت عائشة : « فتواطأت أنا وحفصة ان أيتنا ما دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل اني اجد منك ريح مغافير . اكلت مغافير . (والمغافير شيء حلو له ريح قوية كريهة وكان النبي لا يحب الرائحة الكريهة) . فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له » . وروت سودة وكانت تواطأت على مثل ذلك مع عائشة أن النبي لما دنا منها قالت له : أكلت مغافير . قال لا . قالت فما هذه الريح . قال سقتني حفصة شربة من عسل . قالت جرست نحله العرفط (أي رعت لنحل شجر العرفط الذي يثمر المغافير) . ودخل على عائشة فقالت ، ماقالت سودة. ثم دخل على صفية فقالت له مثل قولها . فحرمه النبي على نفسه . فلما فعل قالت سودة :

سبحان الله . والله لقد حرمناه . فنظرت اليها عائشة نظرة ذات مغزى وقالت لها اسكتى .

طبيعى وقد جعل النبى لأزواجه هذه المكانة بعد ان كن كغيرهن من نساء العرب لارأى لهن ان يتغالين فى الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بها عهد ، وان تبلغ إحداهن من مراجعة النبى حتى يظل يومه غضبان . وكم اعرض عنهن وكم هجر بعضهن حتى لايدفعهن رفقه بهن الى مزيد من غلوهن وأن لاتخرج باحداهن الغيرة الى غير لائق بالسداد . فلما ولدت مارية ابراهيم خرجت الغيرة بأزواج النبى عما ادبهن به حتى كان هذا الحديث بينه وبين عائشة إذ تنكر عليه كل شبه بين ابراهيم وبينه ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبى براءتها منه . وحدث ان كانت حفصة يوما قد ذهبت الى ابيها فتحدثت عنده . وجاءت مارية الى النبى وهو فى دار حفصة وأقامت بها زمناً معه . وعادت حفصة فوجدتها فى بيتها فجعلت تنتظر خروجها وهى أشد ماتكون غيرة ، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدة . فلما خرجت مارية ودخلت حفصة على النبى قالت له : لقد رأيت من كان عندك . والله لقد سبيتنى . وما كنت لتصنعها ولا هوانى عليك . وأدرك محمد ان الغيرة قد تدفع حفصة الى اذاعة مارأت والتحدث به الى عائشة أو الى غيرها من أزواجه فأراد ارضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرام اذا هى لم تذكر مما رأت شيئا . ووعدته حفصة ان تفعل . لكن الغيرة أكلت صدرها فلم تطق كتمان مابه فأسرته الى عائشة . وأومأت هذه الى النبى بما رأى منه ان حفصة لم تصن سره . ولعل الامر لم يقف عند حفصة وعائشة من ازواج النبى . ولعلهن جميعاً وقد رأين مارفع النبى من مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبى على اثر قصة مارية هذه ، وان تكن لذاتها قصة لاشىء فيها اكثر مما يقع بين رجل وزوجه ، أو رجل وما ملكت يمينه مما هو حلله ، ومما لا موضع فيه لهذه الضجة التى اثارت ابنتا ابى بكر وعمر محاولتين أن تقتصا لنفسيهما من النبى عن ميله لمارية . ولقد رأينا ان شيئا من الجفوة وقع بين النبى وأزواجه فى ظروف مختلفة بسبب النفقة أو بسبب عسل زينب أو لغير ذلك من الاسباب التى تدل على ان ازواج النبى كن يجدن عليه أن يكون لعائشة أشدحبا ، أو أن يكون لمارية أكثر هوى . وبلغ من أمرهن أن اوفدن اليه يوما زينب ابنة جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنه لايعدل بين نسائه وأنه لحبه لعائشة يظلمهن . ألم يجعل لكل امرأة يوما وليلة ثم رأت سودة انصراف النبى عنها وعدم بشاشته لها فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاء للرسول . ولم تقف زينب من سفارتها عند الكلام فى ميل النبى عن العدل بين نسائه ، بل نالت من عائشة وهى جالسة بما جعل عائشة تتحفز للرد عليها لولا إشارات من النبى كانت تهدىء من حدتها . غير ان زينب اندفعت ولج بها الاندفاع وبالغت فى النيل من عائشة حتى لم يبق للنبى بد من أن يدع لخميرائه ان تدافع عن نفسها . وتكلمت عائشة بما أفحم زينب وسر النبى ودعاه للاعجاب بابنة أبى بكر . وبلغت منازعات امهات المؤمنين فى بعض الظروف وبسبب ايثاره بعضهن بالمحبة على بعض حداهم النبى معه ان يطلق بعضهن لولا أنهن جعلنه فى حل أن يؤثر من يشاء منهن على من يشاء . فلما ولدت مارية ابراهيم لجت بهن الغيرة أعظم لجاج ، وكانت بعائشة أشد لماجا . ومد لهن فى لجاج الغيرة بهن هذا الرفق الذى كان محمد يعاملهن به ، وهذه المكانة التى رفعهن اليها . ومحمد ليس خليا ليشغل وقته بهذا اللجاج وليدع نفسه لعبث نسائه . فلابد من درس فيه حزم وفيه صرامة يرد الامور بين أزواجه الى نصابها ويتاح له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه للدعوة الى رسالته . وليكن هذا الدرس هجرهن والتهديد بفراقهن فان ثبن الى رشادهن ذلك ، وإلا متعهن وسرحهن سراحا جميلا .

وانقطع النبى عن نسائه شهراً كاملا لايكلم أحداً فى شأنهن ولا يجرأ احد أن يفاتحه حديثهن . وفى خلال ذلك الشهر اتجه بتفكيره الى مايجب عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الاسلام ولمد سلطانه فيما وراء شبه الجزيرة . على أن أبابكر وعمر وأصهار النبى جميعاً ، وما كان أكثرهم ، كانوا فى قلق أشد القلق على ماقدر مصيرا لامهات المؤمنين ومايتعرضن له من غضب رسول الله وما يجر اليه غضب الرسول من غضب الله وغضب ملائكته . بل لقد قيل ان النبى طلق حفصة بنت عمر بعد الذى كان من إفشائها ماوعدت أن تكتمه . وقد سرى الهمس بين المسلمين ان النبى مطلق أزواجه . وأزواجه خلال ذلك مضطربات نادمات ان دفعتهن الغيرة الى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهن هو منهن الاخ والأب والابن وكل مافى الحياة وما وراء الحياة . وجعل محمد يقضى أكثر وقته فى خزانة له ذات مشربة يجلس غلامه رباح على اسكفتها — أى عتبتها — ماأقام هو بالخزانة ، ويرقى هو اليها على جذع من نخل هو الخشونة كل الخشونة . وانه لفى خزانته يوم أوفى الشهر الذى نذر فيه هجر نسائه على التمام ، وقد أقام المسلمون بالمسجد مطرقين ينكتون الحصى ويقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، ويبدون لذلك أسى يبدو على وجوههم واضحاً عميقا ، إذ قام عمر من بينهم فقصد الى مقام النبى بخزانته ونادى غلامه رباحا كى يستأذن له على رسول الله . ونظر الى رباح يروم الجواب فاذا رباح لا يقول شيئا علامة ان النبى لم يأذن . فكرر عمر النداء ولم يجب رباح مرة اخرى . فرفع عمر صوته قائلا : يارباح استأذن لى عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه أظنه ظن انى جئت من أجل حفصة . والله ان أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها . وأذن النبى فدخل عمر فجلس ثم أجال بصره فيما حوله وبكى . قال محمد ما يبكيك يابن الخطاب . وكان الذى أبكاه هذا الحصير الذى رأى النبى مضطجعاً عليه وقد أثر فى جنبه ، والخزانة لاشىء فيها الا قبضة من شعير ومثلها من قرظ (وهو القرض بلغة مصر) وأفيق — أى جلد — معلق . فلما ذكر عمر مايبكيه خامه محمد من وجوب الاعراض عن الدنيا مارداليه طمأنينته . ثم قال عمر يارسول الله . مايشق عليك من أمر النساء . ان كنت طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . ثم انعكف يحدث النبى حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتى ضحك . فلما رأى ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه . فلما ذكر النبى انه لم يطلقهن استأذنه فى أن يفضى بالامر لأولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون . ونزل الى المسجد فنادى بأعلى صوته : لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه . وفى هذه القصة نزلت الآيات الكريمة من أول سورة التحريم : (يأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . واذ أسر النبى الى بعض ازواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ، قال نبأنى العليم الخبير . إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً .) وبذلك انتهى الحادث وثاب الى نساء النبى رشادهن ورجع هو اليهن تائبات عابدات مؤمنات . وعادت الى حياته البيتية السكينة التى يحتاج اليها كل انسان لأداء مافرض عليه أداؤه .

ماقصصت الآن عن هجر محمد نساءه وتخييره إياهن ومقدمات هذا الهجر ونتائجه والوقائع التى سبقته وأدت اليه هو فى رأيى الرواية الصحيحة لتاريخ هذا الحادث رواية يتضافر على تأييدها ماجاء فى كتب التفسير وفى كتب الحديث وما جاء متفرقا عن اخبار محمد ونسائه فى السير المختلفة . لكن واحدة من هذه السير لم تقص الحوادث ولم تضع المقدمات والنتائج بالصورة التى سردنا هنا . وأكثر السير تمر بهذا الحادث مراً ولا تقف قط عنده وكأنما تجده خشن الملمس فتخشى ان تقربه . وبعضها يقف عند رواية خبر العسل والمغافير ولا يشير بكلمة الى مسألة حفصة ومارية . فأما المستشرقون فيجعلون مسألة حفصة ومارية وإفضاء حفصة الى عائشة بما شاهدت النبى على أن تكتمه سبب كل الذى وقع ليحاولوا بذلك أن يضيفوا جديداً لما يلقون فى روع قرائهم عن النبى العربى من انه كان رجلا محباً للنساء حباً معيباً . وعندى ان المؤرخين المسلمين لاعذر لهم فى إغفال هذه الوقائع ولها مغزاها الدقيق الذى سقنا شيئا من أمره ، وان المستشرقين يتخطون الدقة التاريخية متأثرين فى ذلك بوهم المسيحى . فالنقد التاريخى يأبى كل الاباء على أى انسان ، بله على عظيم كمحمد ، ان يجعل من إفضاء حفصة لعائشة بأنها وجدت زوجها فى بيتها مع مولاة له هى ملك يمينه وهى بذلك حل له سببا لهجر محمد نساءه جميعا شهراً كاملا وتهديده إياهن جميعا بالف